إبهاج الحاج

ناصر الزهراني

الطبعة الأولى ١٤١٤هـ
الطبعة الثانية ١٤١٥هـ
الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ

طبعة مزيدة ومنقحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقريظ

لصاحب الفضيلة الشيخ العلاّمة:

عبدالله بن عبدالرحمن البسام

رئيس محكمة التمييز للمنطقة الغربية

وعضو مجلس هيئة كبار العلماء

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد أهداني فضيلة الشيخ: ناصر بن مسفر الزهراني كتابه «**إبهاج الحاج**» فظَنَنْتُ أني أمام مَنْسكٍ من مناسك الحج كُتبت أحكامه ومسائله بطريقةٍ جديدة وبأسلوب مُيَسَّرٍ مُسَهَّل لعامة القراء وحَسْبُ. وإذا بي أمام ـ موسوعة ـ مختصرة ميسرة جمعت إلى صفوة أحكام المناسك ما لذَّ وطاب من المعارف واللطائف والطُّرَف والتُّحَف والأحكام والآداب والأخبار والأشعار والمواعظ والحكم فَقَارِئُه في رَوْضةٍ فَوَّاحةٍ يتنقَّل فيها بين أزهارها وثمارها تَنَقّل الطائر المغرِّدِ في أفنان الجنان. فهو جليسٌ لا تُملّ مجالسته وأنيسٌ لا تُملّ منادمته ومُحدِّثٌ لا يُملّ حديثه.

فجزا الله المؤلف خير الجزاء وأثابه على ما بذل وقدّم.

تقريظ

لصاحب الفضيلة الشيخ الدكتور
أحمد بن عبدالله بن حميد

المدرس بكلية الشريعة بجامعة أم القرى

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإنّ الحج مدرسةٌ تربويةٌ جامعة يحصل به تهذيب للنفوس وتزكية لها وقُرْب من الله عز وجل. فهو أطول العبادات زمناً؛ إذ يستغرق ـ في المعتاد ـ خمسة أيام، يصاحب ذلك تغيُّر في حال الحاج، وتَرْكٌ لما أَلِفهُ في حياته الرتيبة من المسكن والمأكل وغير ذلك، ويكتسب فيه رفقاء جدد فهو يعيش حياة جديدة لم يألفها طوال سنته. حياة عمودها الإخلاص ولُحمتها الاقتداء، وشعارها التلبية والتكبير والتهليل، كل ذلك له تأثيره الواضح، فترى الحاج ـ بعد أداء النسك ـ أكثر صلاحاً واستقامة وحبًّا للخير وقرباً من الله ـ جل وعلا ـ وفي قوله تعالى: ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﴾ دلالة واضحة فهي نكِرةٌ في سياق الامتنان فتعمّ كل منفعة.

وإذا كان للحج هذا الأثر فالحاج بحاجة ماسة إلى ما يسد جوعه ونهمه من كتب ومقالات ودروس ومحاضرات فهو في حال إقبال على الله راغبٌ في الخير وأسبابه. ولهذا يلاحظ المرء كثيراً من الحجاج يأتي نادماً وجلاً، يسأل عمَّا فَرَّط فيه من طاعة، وما ارتكبه من معصية.

وإن كتاب الشيخ الفاضل ناصر بن مسفر الزهراني «**إبهاج الحاج**» له طعمٌ متميز ومنهج خاص قد لا يوجد في غيره؛ جمع فيه مؤلفه ـ جزاه الله خيراً ـ ما يحتاج المسلم أثناء الحج من أحكام ودروس وعبر ومواقف ولمحات وقصائد وشوارد مراعياً في اختيارها جانب التربية والتهذيب والموعظة والتذكير، كل ذلك بأسلوب يخاطب القلوب قبل الأسماع، وكان ـ جزاه الله خيراً ـ موفقاً في اختيارها متميزاً في صياغتها وعرضها.

أسأل الله أن يكتب لمؤلفه الأجر والثواب، وأن يبارك في علمه وجهوده وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه.

مقدمة

صاحب المعالي الدكتور **صالح بن عبدالله بن حميد**
إمام وخطيب المسجد الحرام

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وبعد:

فقد اطلعت على كتاب «**إبهاج الحاج**» لصاحب الفضيلة أخي الشيخ ناصر بن مسفر الزهراني، فألفيته كتاباً قيماً سلك فيه الشيخ نَهْج جِدَّةٍ، وابتكار فتح للقارىء مدرسة الحجِّ بِشعائرها ومنافعها وفرائدها وفوائدها ما بين فقهٍ متين، وحكمةٍ بالغة وموعظةٍ رقيقة وطُرفةٍ لطيفة ومعلومة طريفة، جمع من الثمار جناها، ومن الرياحين أزكاها، صغير المبنى، موسوعي المعنى، ضم إلى حسن التبويب أسلوب الأديب، يفرح به العالم، ويستمدُّ منه المرشد ويفيد منه الطالب، جليس الحضر، ورفيق السفر، لا يختص بموسم ولا تَحُدُّه مناسبة، جدير بطالب العلم أن يقتنيه وحريٌّ بذي الفضل أن ينشره، فشكر الله للمؤلف سعيه وأحسن جزاءه وأجزل عطاءه ورزق الجميع الإخلاص والإحسان في القول والعلم والعمل إنه سميع مجيب وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه: **صالح بن عبدالله بن حميد**

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

هذا الكتاب ليس صورة مكررة لما سبقه من تآليف، فلقد عمدتُ فيه إلى التجديد، وقدَّمتُ فيه الجديد، فجاء بعيداً عن الرّتابة المعتادة في كثير من مؤلفات الحج.

الحج أسرارٌ وعبر، دروسٌ وحكم، تربيةٌ وتزكية، قصصٌ ومواقف، أحداثٌ وطرائف، أخبارٌ وآثار، خطبٌ وأشعار، فوائد مُمْتعة، آداب نافعة، وصايا جامعة، مواقف رائعة، فلعلك تظفر بذلك كله في هذا الكتاب الذي أردتُّ أن يكون سلوة للحاج، ومناسباً لكل مزاج، فلقد جَهَدتُّ أن يكون مضمونه تصديقاً لعنوانه «**إبهاج الحاج**» وكذلك بالنسبة للمرأة المسلمة، فإنها تجد نفسها، وتاريخها، والإشارة إلى بعض أمجادها، وتوجيه الخطاب إليها، والاهتمام بأمرها في هذا الكتاب فلَها فيه حظٌّ وافر.

فالكتاب أشبه بحديقة غناء، وبستان جميل فيه الفاكهة الشهية والخضرة الندية، والرائحة الزكية، والزهرة البهية، يتجول الحاج فيه بقلبه وعقله ليجد فيه مما تشتهي النفس ألواناً، ومما يطرب القلب أفناناً. فدونك روضة فيحاء أمدَّها ماء الوحي وغيث الرسالة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

بِنفسيَ ذاك الروض ما أحسن الحيا
وما أحسن المصطـاف والمتربَّعـا

ناصر الزهراني

موكب الحجيج

الحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى البلد الأمين لمناجاة رب العالمين.

ما أروعها من رحلةٍ وما أعظمه من منظر يأخذ بالألباب!

هل رأيت لباساً قط أجلّ من لباس الحجاج والمعتمرين؟
هل رأيت رؤوساً أعز وأكرم من رؤوس المحلِّقين والمقصِّرين؟
هل مرّ بك ركْبٌ أشرف من ركب الطائفين؟
هل هَزَّك نغمٌ أروعُ من تلبية الملبين، وأنين التائبين وتأوِّه الخاشعين، ومناجاة المنكسرين؟

فَأُجِيبُوا إجابةً لم تقع في المسامعِ
ليس ما تصنعونه أوليائي بضائعِ
تاجروني بطاعتي تربحوا في البضائعِ
وابذلوا لي نفوسكم إنها في ودائعي

يا لجلال الموقف ويااللروعة والعظمة؛ السماء في مهرجان يتنزل فيه الروح والملك سبحانك ربي ما أعظمك وأعدلك والأرض في عيد تتبرأ من الدماء المسفوكة والأموال المحرمة، والخطى الآثمة

وترحب بالدماء التي أُهريقت في سبيل الله وحده.

وهكذا تتجلى روح المساواة والأخوة والوحدة فتبدو جلية كالشمس ناصعة كالبدر.

وِحْدةٌ في المشاعر، وَوِحْدةٌ في الشعائر، وَوِحدةٌ في الهدف، ووحدةٌ في العمل، ووحدةٌ في القول، لا إقليمية، لا عنصرية، لا عصبية للون أو جنس أو طبقة.

عبق الذكريات:

هنا التاريخ يعود غَضّاً طرياً نقياً بهياً، هنا تترآى في الأفق الذكريات الخالدة والمواقف الرائعة هكذا وقد استدار الزمان دورته لنتذكر جميعاً ذلك الرجل المحرم الذي أنار الله به الأفكار ووضع به الآصار، وغسل به الآثام والأوزار.

لنتذكر جميعاً أطهر نفس أحرمت، وأزكى روح هتفت، وأفضل قدم طافت وسعت، وأعذب شفةٍ نطقت وكَبَّرت وهللت، وأشرف يدٍ رَمَتْ واستلمت، هنا تترآى لنا تلك الروعة حيث ينقل خطاه في المشاعر، يهتف مع الملأ الطاهر في مظهر من أجلّ مظاهر التقوى والخشوع ورقَّة المشاعر.

يتنقل مع أصحابه ومحبيه مُردِّدين تلك النغمة الرائعة ومترنمين بتلك العبارات الناصعة «**لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**».

إلهنــا مــا أعــدلــكْ   مَلِيكَ كلِّ من مَلَكْ

لبيـك قـد لبيـتُ لـك — لبيك إن الحمـد لـك
والملك لا شريك لك — ما خاب عبدٌ سألك
أنت له حيث سلك — لـولاك يـارب هلـك
لبيـك إن الحمـد لـك — والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك — والسابحات في الفلك
وكـل مـن أَهَـلَّ لـك — سَبَّـح أو لبّـى فلـك
يا مخطئاً ما أغفلك — عَجِّـل وبـادر أجلـك
اختـم بخيـرٍ عملـك — لبيك إن الحمـد لـك
والملك لا شريك لك — والحمد والنعمة لك

سبحانك يارب ما أروعه من منظر وأبدعه من موقف؛ مكة تدوي ببطحائها في العالمين لتقول من هنا يبدأ التاريخ ـ تاريخ التوحيد ـ تاريخ العدل، تاريخ الحرية، تاريخ الحق والسلام والإسلام، لكأني بالمعصوم ﷺ محرماً يتهلل وجهه سروراً ويمتليء قلبه غبطة ورضىً بنعمة النصر ونعمة إتمام النعمة ودخول الناس في دين الله أفواجاً لكأني به مرتدياً زي الصفاء والنقاء والوفاء والرجاء وحوله كوكبةٌ من أصحابه العظماء الأوفياء الأتقياء: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وبلال... ولسان حالهم جميعاً يقول للعالم ويخاطب الدنيا:

قـد بعثنـا للنـاس شعثـاً وغبـراً — كالقضاء المحتوم في الأحقاب
حيـن بعنـا رؤوسنـا يـوم بـدرٍ — واشترينا الرضوان في الأحزاب

اللهم صل وسلم على صاحب الأنفاس النقية، والطلعة البهية، والنفس الرضية، والمهجة التقية، واليد الوفية، وذروة السلالة الهاشمية وعلى آله وصحابته، تلك النخبة الأبية، ذات المعنويات القوية، والأفعال النورانية.

أنت الذي قَوَّمت ميزان الورى	ومحوت ظلم العدل في الميزان
آسيتَ أيتاماً كفلت أراملا	أسْعدتَّ محروماً رحمت العاني
أنقذتَ مسكيناً حميتَ مشرّداً	أسعفت مكروباً هديت الجاني
صلّى عليك النيّران وسلما	يا رحمةً بعثت من الرحمن

عروس الرمال

هنا نزلت الكلمة الطيبة، وهنا هبطت ﴿ٱقْرَأْ﴾ نزل بها الروح الأمين على قلب سيد المرسلين.

مرحباً في مهبط الوحي التي حفّها الطّهرُ وفيض المنعمِ
أمرها في الناس ما أعجبَهُ أطربتْ قلبَ وعقل المسلمِ
هاهنا آياتُ ﴿إقرأ﴾ نزلتْ وأتى إعلان شأن القلمِ
وَسَرَتْ في الأرض أحلى نغمة: ﴿علم الإنسان ما لم يعلمِ﴾

من مكة انبعث النور وقام سوق العدل، ونُصب ميزان القيم، ورُفع منبر الحق، وبزغ فجر الفضيلة.

وعلى رمالها عُفِّر الشرك، وعلى ثراها مُزِّق الوثن، وفي أوديتها أُزهق الباطل، وعلى صخورها تحطمت جماجم الملاحدة.

بدأ التأريخ غَضًّا طرياً من مكة، وترعرع الزمن متألقاً من مكة، ووقع نور السماء على بساط مكة، فتبدَّد الوثن الجاهلي الجاثم.

لَعْلَعَتْ لا إله إلا الله ملء فم اليتيم على الصفا، وانسحق الإيوان الفارسي الغاشم، وتحطم الكيان القيصري الظالم، وغاضت بحيرة ساوه مراتع الظلم والفجور، وأُطفئت نارالمجوس فلا توقد أبداً.

لم تزالي على ممرِّ الليالي موئل الحقّ يا عروس الرمال
أنا في خدرِك الوضيء التفاتات ذهولٍ وهينمات ارتحال

فجَّعتْهم آلاء أحمد والأصنام فيها مُهتَّكات الحِجال
قال يا عمِّ لا تدعني هنا وحدي وما لي سواك من مفضال
وبُحَيْرىٰ يروي أحاديث قدسٍ خاضلات الأنداء والآمال
وعلى يثرب أهازيج فتحٍ تتلقى بالحق خير الرجال
واستفاقت على صباح جديدٍ ملؤ آذانها أذان بلال
يا حجيج الرحمن تلك فيوضي عابرات بالحبِّ والإِجلال
قل لمن شاء راحة في ضفاف النيل بين النخيل والأوحالِ
ليس عاراً إنْ في النضال عثرنا إنما العار في اجتناب النضال[1]

قال أبوهريرة رضي الله عنه: لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ مكة قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله ﷺ والمؤمنين، وإنها لم تحلَّ لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحلَّ لأحد بعدي، فلا ينفَّر صيدها، ولا يُختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلاَّ لمنشد، ومن قُتل له قتل فهو بخير النظرين: إما أن يُفدى وإما أن يَقتل**» فقال العباس: إلاَّ الإذخر يارسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا. فقال رسول الله ﷺ: «**إلاَّ الإذخر**».

[رواه مسلم]

(١) مقطع من قصيدة للشاعر: عمر أبوريشة ـ رحمه الله ـ.

الرفيق قبل الطريق

إذا المرءُ لم يرضَ ما أمكنَه ولَمْ يأت من أمرِه أحسنَهْ
فدعه فقد ساء تدبيرهُ سيضحكْ يوماً ويبكي سَنَهْ

يا أخي الحاج يا من نويت المسير إلى بيت العزيز القدير، وأزمعت الرحيل لمرضاة الجليل، وعزمت على السفر طاعة لرب البشر، أما علمت أن المسافر يحتاج إلى صحبة، والطريق تلزمه الرفقة؟ فهل اخترت صحبتك، وعرفت رفقتك؟ الصحبة التي تُذكِّرك إذا نسيت، وتنبهك إذا غفلت، وتعينك إذا قصَّرت، يُقرِّبونك من الله ويسعون بك إلى رضاه، يؤنسونك في الوحشة، ويسلونك في الغربة.

من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه رفقة صالحة، وصحبة ناصحة. سعادةٌ بالغة لمن وجد إخوةً يأنس بهم، وأحبةً يرتاح لهم، إذا كثرت عليه الهموم وجد عندهم ما يطرد هَمّه ويُذهب غمه، إذا ضاقت به الأمور لقي منهم ما يفرّج كَرْبه ويدفع ضائقته، إذا قسا عليه الزمان وجارت عليه الأيام وجد من عطفهم ما ينسيه القسوة، ومن برِّهم ما يبرد قلبه.

إذا أراد سفراً كانوا له في سفره مؤنسين، وعلى طريقه الشاق معينين المسافر إذا رُزق الصحبة الطيبة الوفية، المخلصة التقية،

الناصحة الصالحة، فإن مشقة السفر لا تجد إلى نفسه طريقاً، ووصب الرحلة لا يجد إلى قلبه مسلكاً، لا مشقة ولا وعثاء، لا تعب ولا عناء، لا هموم ولا شقاء.

يقال: إن السفر سمِّي سفراً لأنه يُسْفِرُ عن أخلاق الرجال ويكشفها على حقيقتها. رأى عمر بن الخطاب رجلاً يُثني على آخر فقال له عمر: هل سافرتَ معه؟ قال: لا. فقال عمر: فما عرفته إذن.

أخي الحاج إن اختيارك للصحبة الطيبة هو جزء لا يتجزء من سفرك، وعنصرٌ لا غنى لك عنه في رحلتك وعليك قبل الشروع في ترتيب أغراض السفر وحوائج الرحلة أن تشرع أولاً في البحث عن الرفيق الصالح والأخ الناصح، الذي إذا غفلت ذكّرك، وإذا جهلت نبهك، وإذا أخطأت نصحك، وإذا أذنبت وعظك، إن عثرت أقال عثرتك، وإن أسأت ستر إساءتك، وإن أحسنت أعانك على إحسانك، يؤثرك على نفسه، ويحبك من قلبه، ويصدقك في قوله ونصحه. وقد صدق أهل الأمثال في قولهم (الرفيق قبل الطريق) وقولهم (الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال).

واعلم أخي الحاج أن المرء كثير بإخوانه، وأن المسافر قويٌّ برفقائه، واعلم أن القرين يعرف بقرينه، وكما تكون يكون جليسك، وقديماً قالوا: قل لي من تجالس أقل لك من أنت، فاختر الجليس الصالح فإنك لن تجد منه إلاَّ خيراً، ولن ترى معه إلا حَسَنا، وقد دعانا نبي الهدى ﷺ إلى مصاحبة الصالحين ونبذ

الطالحين فاستمع إلى هذا الحديث الجميل منه ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة**».

وقال ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**».

وقال الشاعر:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن مُقتدي

وصاحب أولي التقوى تنلْ من تقاهُمُ ... ولاتصحب الأردى فتردَى مع الردى

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

قال الحكماء: الصاحب رقعة في قميص الرجل فلينظر الرجل بما يرقع قميصه.

وما صاحب الإنسان إلاَّ كرقعةٍ ... على ثوبه فليتخذ ما يشاكله

ومن صاحب العاقل ربح وفاز ومن صاحب الجاهل خسر وندم.

ولاتصحبْ أخا الجهل ... وإيـاك وإيـاهُ

فكم من جاهلٍ أردى ... حليماً حين يلقاهُ

يُقاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا ما هو ماشاهُ

وللقلب على القلب دليلٌ حين يلقاهُ

إن المسافر المؤمن العاقل يختار لنفسه الرفيق الصالح صاحب الدين فإن تارك الدِّين عدوٌّ لنفسه فكيف يُرجى منه مودَّةً لغيره.

واحذر معاشرة الدنيء فإنها
تُعدي كمايُعدي الصحيحَ الأجربُ
يلقاك يحلف إنه بك واثقٌ
وإذا توارى عنك فَهْو العقربُ

قال بعض الحكماء: اصطف من الإخوان صاحبَ الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنه رِدْءٌ لك عند حاجتك، وعند نائبتك، وأنسٌ عند وحشتك وزينٌ عند عافيتك.

أخلأَّء الرخاء هُمُ كثيرٌ ولكن في البلاء هُمُ قليلُ
فلا يَغْررْك خُلَّةُ من تؤاخي فما لك عند نائبةٍ خليلُ
وكلّ أخ يقول أنا وفيٌّ ولكن ليس يفعل ما يقولُ
سوى خلٍّ له حسبٌ ودينٌ فذاك لما يقول هو الفعولُ

فصحبة التقي ومرافقته هي الفوز العظيم ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

أخي الحاج:

احذر مودّة ماذقٍ مزج المرارة بالحلاوه
يحصي الذنوب عليك أيام الصداقة للعداوه

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لا تؤاخ الفاجر فإنه

يُزيّن لك فعله، ويحب لو أنك مثله، ويزين لك أسوأ خصاله، ومدخلُه عليك ومخرجه من عندك شينٌ وعار.

يقول المأمون: الإخوان ثلاث طبقات:

طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه. وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليه إلاَّ أحياناً. وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبداً.

يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لولا أن أجاهد في سبيل الله أو أضع جبهتي في التراب لله أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لأحببت أن أكون لحقت بالله.

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صَدَّعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك

وما أروع ما قال البارودي واصفاً بعض الأصدقاء والرفقاء:

ليس الصديقُ الذي تعلو مناسِبُهُ ... بل الصديقُ الذي تزكو شمائلُهُ
إن رابكَ الدّهرُ لم تفشل عزائمه ... أو نابك الهمُّ لم تَفْتُرْ وسائِلُهُ
يرعاك في حالتي بُعدٍ ومقربةٍ ... ولا تُغبُّكَ من خيرٍ فواضلُهُ
لا كالذي يدّعي ودّاً وباطنه ... بجمر أحقاده تغلي مراجلُه
يذمّ فعل أخيه مظهراً أسفاً ... ليوهم الناس أن الحزن شامِلُهُ
وذاك منه عداءٌ في مجاملةٍ ... فاحذره واعلم بأن الله خاذِلُهُ

رزقنا الله وإياكم الصحبة الطيبة، والرفقة الصالحة، الذين نحبهم ويحبوننا في الله تعالى لنكون وإيّاهم ممن يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله.

روح الحج

الحج ترك الديار، وفراق الأهل، وقصد الكريم، وتذكر الرحيل، والقدوم على بيت المنعم.

الحج: منازلة إبليس، وإرغام الطاغوت، واجتماع الأمة، وتجديد العهد، والاتفاق على الميثاق.

الإحرام: طرحُ الزينة، ارتداءُ الكفن، التهيؤُ للموت، إظهارُ المسكنة، توحيدُ الزيّ، بياضُ اللباس والمنهج والرسالة، شَعَثُ الخدمة، غبارُ المشقَّة والتضحية، ظمأُ الكبد لِماء الحوض، واشتياقُ القلب لِمعاهد الوحي.

التلبية: نشيدُ الأحرار، وأرجوزةُ الموسم، وحداء الرحلة، وهتاف الخالدين، إنه تصميم على المواصلة وتجديد للنشاط، وأذان للدهر، وإعلان لانتصار الحق على الباطل، والرشاد على الغي، والصواب على الخطأ، إنه حُرُوفٌ صادقة لَحَّنَتها حناجرُ الشُّعثِ الغُبْر، تَرْجَمتُها: سمعنا وأطعنا وأتينا وحضرنا.

الطواف: دوران حول الرمز الخالد، والمثل الحيَّة، استجداءٌ مُلِحّ مِنّا للكـريم جل في علاه، تكرارٌ للطَّلب، والتفاتٌ إلى بيت الجواد المنان. إنّ الطواف قصدٌ لبيتِ الله وهجرٌ لِبيوت ما سواه،

وسؤال للضيافة، ولِسانُ الحال ينادي: كَلَّت المطايا، وكسلت الرواحل، وضعفت الأبدان، وتعبت الأقدام، وجئنا ببضاعة مزجاةٍ فأوفِ لنا الكيل وتصدّق علينا.

السعي: امتثالٌ للأمر، واتباع لِلأُمّ[1]، وركضٌ في طلب الرضا، وسعيٌ حثيث يُذَكِّر بالقرب من الغاية، وتشميرٌ لطلب الأجر، وكدحٌ لجمع الحسنات وحطٌّ للسيئات ورفعٌ للدرجات.

الوقوف بعرفة: التقاءُ الأرض بالسماء، والعقلُ بالوحي، والفناءُ بالبقاء، واتصالُ الضعف بالقوَّة، والفقرُ بالغنى.

عرفة: حيث تَساوِي الرؤوس وتخفيضُ الجماجم، وإزهاقُ النَّعرَات، وقتلُ الكبرياء، وذبحُ الشرك على الصعيد.

عرفة: فلا تقديس ولا تعظيم ولا تبجيل إلاَّ لواحد، ولا رهبة ولا خوف ولا وجل إلاَّ من واحد، ولا رغبة ولا مسألة ولا صمود إلاَّ لواحد، ولا انتصار ولا استعلاء إلاَّ بواحد.

عرفة: حيث طُوي الزمان واختصر الدهر وحضر التأريخ واشرأبت الأيام، وتطلّع الغيب وأنصتت الدنيا وأذعن العالم.

عرفة: حيث حَصْحَص الحقّ، وزهق الباطل، وانتصرت الحقيقة ودُمِّر الرجس ولُفّت أكفان الجاهلية، وَرُدِمتْ حُفَرُ الضلال.

عرفة: حيث أنصت القلب لخطاب الرسالة، وأجهشت النفس بمشاعر الحب، وأُسِرَ الضمير في قبضة القدرة.

---

(١) أم إسماعيل عليه السلام.

الرمي: قذفُ الباطل، ورجمُ الضلال، وسحقُ الغواية، والنضالُ المسلح أمام الطغيان، ومصارعة أدعياء الإلحاد وروّاد الانحراف وأساطين الفجور.

الحلق: تفاؤلٌ بحطِّ السَّيئات وخلعُ رداء الذنب والانسلاخُ من قميص الإثم، والتجرُّد من شَعرِ الماضي، وذكريات الأمس وبقايا الفائت.

النحر: تضامنٌ مع إبراهيم، وعقرٌ للنفائس، واتِّساءٌ بالأب[١]، وفداءٌ للابن، وتحيةٌ للشّعار، وموسمٌ للقرابين، وشكرٌ على درء القتل عن إسماعيل، وضيافة بمناسبة فرح الخليل.

يحن إلى أرض الحجاز فؤادي	**ويحدواشتياقي نحو مكة حادي**
ولي أملٌ مازال يسمو بهمتي	**إلى البلدة الغراء خير بلاد**
بها كعبة الله التي طاف حولها	**عبادٌ هم لله خير عباد**
لأقضيَ فرض الله في حج بيته	**بأصدق إيمان وأطيب زاد**
أطوف كما طاف النبيون حوله	**طواف قياد لا طواف عناد**

---

(١) إبراهيم عليه السلام حينما ذبح الكبش فداءً لإسماعيل.

أحكام السفر وأدعيته

لما كان السفر قطعة من العذاب، جعل الله له رخصاً تيسره وأحكاماً تَخُصُّه، تخفيفاً على هذه الأمة، مِنَّةً منه ورحمة، وكان هدي النبي ﷺ في السفر أيسر الهدي وأتمَّه، فكان ﷺ يستحب السفر يوم الخميس في أول النهار، وكان يقول: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**» [رواه أحمد].

ونهى الرجل أن يسافر وحده وأمره بالرُّفْقة فقال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**» [رواه الترمذي]

وأمرهم أن يتخذوا أميراً في سفرهم ينظم لهم أمرهم فقال: «**إذا كنتم ثلاثة في سفر فلتؤمروا أحدكم**» [رواه أبوداود]

ونهى المرأة أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلاَّ مع ذي محرم لها.

ورخَّص ﷺ للمسافر أن يمسح على الخفين ثلاثة أيام بلياليهن.

وكان من هديه ﷺ أن يقتصر في سفره على صلاة الفريضة ولم يُحفظ عنه ﷺ أنه صلَّى سنة الصلاة قبلها ولا بعدها في سفر، إلاَّ ما كان من الوتر وسنة الفجر، فإنه لم يكن ليدعها حضراً ولا سفراً وكان يقول: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**» [رواه البخاري]

وكان يقصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، ولم يثبت عنه ﷺ أنه

أتمَّها في سفر قطُّ، إلاَّ إذا كان المسافر مُؤْتَماً فإنه يتم مع الإمام المقيم، فقد سُئل ابن عباس ـ رضي اللهعنهما ـ عن ذلك فقال: تلك سنة أبي القاسم ﷺ. [رواه مسلم]

وكان إذا جَدَّ به السير فارتحل قبل زوال الشمس، أخَّر الظهر إلى العصر، وإذا ارتحل بعد زوال الشمس قدَّم العصر مع الظهر فصلاهما جميعاً، وكذلك المغرب والعشاء. وكان إذا نزل منزلاً صلىٰ كلَّ صلاةٍ في وقتها وتارة يجمع بين الظهرين وبين العشائين.

وكان ﷺ يصلي النافلة على راحلته وهو مسافر، فيستقبل بها القبلة عند تكبيرة الإحرام، ثم يتوجَّه بها إلى حيث يشاء، وتارةً يصلي عليها ابتداءً حيث توجَّهت به، وكان يومىء برأسه لركوعه وسجوده، وسجوده أخفض من ركوعه.

وأما الفريضة فكان لا يصليها على الراحلة بل ينزل إلى الأرض، ورخَّص لأهل السفينة أن يصلوا الفريضة عليها، وألحق العلماء الطائرة بها، فجوَّزوا صلاة الفريضة عليها إذا كان السفر طويلاً حتى ولو لم يتمكن المصلي من التوجه للقبلة.

ورخَّص ﷺ للمسافر ترك الجمعة فقال: «**ليس على مسافر جمعة**» [رواه الطيالسي والطبراني]

ولم يصلها في سفره قطُّ.

وكان ﷺ إذا سافر في رمضان يفطر، وسأله حمزة بن عمرو الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ وكان كثير الصيام: أأصوم في السفر؟

فقال له النبي ﷺ: «**إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر**» [متفق عليه].

وكان ﷺ إذا سافر أقرع بين نساءه فأيّهن خرج سهمها سافر بها معه.

أدعية السفر:

١ـ دعاء الركوب والسفر:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوىٰ على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ثم قال: «**سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضىٰ اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بُعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد**» وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهنَّ: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**» [رواه مسلم].

وعن علي بن ربيعة قال: شهدت عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أُتى بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوىٰ على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله، ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر، ثلاث مرات، ثم قال: سبحانك إني

ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك. فقلت: يارسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: «**إن ربك سبحانه يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري!**» [رواه أبوداود والترمذي]

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا إذا صعدنا كبَّرنا، وإذا نزلنا سبَّحنا. [رواه البخاري]

٢ـ الدعاء إذ خاف ناساً أو غيرهم:

عن أبي موسى الأشعري؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**»

[رواه أبوداود]

٣ـ ما يقول إذا نزل منزلاً:

عن خولة بنت حكيم ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**» [رواه مسلم]

٤ـ ما يقول إذا أقبل الليل:

عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «**يا أرضُ ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خُلق فيك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ به من شر أسدٍ وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد**» [رواه أبوداود]

صفـة

الحـج والعمـرة

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

أولاً : الإحرام

يا لحظة من أجمل الأوقات — لما أتينا مسجد الميقات[١]
نَنْوي لمن يعلم بالنيَّات — بالحجِّ والعمرة في إخبات
ما أروع الجموع وهي تاتي — منيبة من سائر الجهات
جاءت وفودٌ من بني الإسلام — مسيرها للبلد الحرام
وقد لبسنا ثوبَي الإحرام — وكلُّنا فقرٌ إلى العلاّم

* * *

وأقبلت جموعنا تلبِّي — والكلُّ يدعو باكياً: يا ربِّي
أنِرْ طريقي للهدى وَدَرْبي — واصفح عن الزلات وامح ذَنْبي

أول أعمال الحج أو العمرة هو: الإحرام.

لذلك ينبغي أن نعرف أولاً مكان الإحرام ووقته والأشياء التي ينبغي فعلها قبل الإحرام، ومعنى الإحرام، وأنواع النسك التي يحرم بها الإنسان، والذِّكر الذي يقال عند الإحرام وبعده، والأشياء التي يحرم على المحرم فعلها.

أ ـ معنى الإحرام :

معنى الإحرام هو أن تنوي الدخول في النسك الذي تريده فإذا

---

(١) جميع هذه الأبيات الموجودة في وصف صفة الحج من نظم المؤلف.

نويت الدخول فيه فقد أحرمت حتى ولو لم تتلفظ بشيء.

ب ـ مكان الإحرام:

وهي المواقيت والأمكنة التي عينها النبي ﷺ ليحرم منها من أراد الحج أو العمرة وهي خمسة:

(١) ذو الحليفة ـ ويسمى الآن (أبيار علي) وهو ميقات أهل المدينة ومن جاء عن طريقها.

(٢) الجحفة (موضع قريب من رابغ؛ على طريق الساحل) والناس يحرمون اليوم من رابغ بدلاً منها وهذا ميقات لأهل المغرب والشام ومصر ومن جاء عن طريقهم.

(٣) يلَمْلَم ـ ويسمى الآن بالسعدية ـ وهو ميقات لأهل اليمن، ومن جاء عن طريقهم.

(٤) قرن المنازل ـ ويسمى بالسيل ـ وهو ميقات لأهل نجد ومن جاء عن طريقهم.

(٥) ذات عِرْق ـ وهو ميقات أهل العراق ومن جاء عن طريقهم.

(٦) من كان منزله دون هذه المواقيت مما يلي مكة فإنه يحرم بالحج أو العمرة من منزله إلا من كان منزله في مكة فإنه يخرج إلى الحل لِلاحرام بالعمرة، وأما الحج فيحرم به من مكة، وكذلك من مر بهذه المواقيت وهو لا يريد حجاً ولا عمرة ثم نوى الحج أو العمرة بعد أن جاوزها فإنه يحرم من المكان الذي نوى فيه ولا يتجاوزه إلى مكة إلاَّ وهو محرم.

جـ ـ وقت الإحرام بالحج :

هو الأشهر التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ . . .﴾ وهي شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذي الحجة، ولو أحرم بالحج قبل هذه الأشهر لم يصح إحرامه عند الجمهور.

د ـ الأشياء التي يفعلها الحاج قبل الإحرام :

١ ـ أخذ ما يحتاج إلى أخذه من تقليم الأظافر وقص الشارب وأخذ شعر الإبطين وشعر العانة.

٢ ـ الاغتسال لجميع البدن، وهو ليس بواجب؛ لأنه سُنَّة في حق الرجال والنساء حتى النفساء والحائض.

٣ ـ الرجل يخلع جميع الملابس المخيطة ويلبس إزاراً ورداءً ويستحب أن يكونا أبيضين نظيفين.

أما المرأة فتخلع ما على وجهها من برقع ونقاب مما خيط للوجه خاصة، وتجعل مكانه خماراً تغطي به رأسها ووجها عن الرجال غير المحارم.

وكذلك يلزم المرأة عند الإحرام أن تزيل ما على كفيها من القفازين (الكفوف) وماعدا النقاب والبرقع والقفازين فلا تُمنع من لبسه، مما جرت عادتها بلبسه، ولم يكن فيه زينة. ولا يتعين لون خاص لثياب الإحرام في حق المرأة.

٤ ـ بعد الاغتسال يتطيب في بدنه فقط بما تيسر ولا يطيب ملابس

الإِحرام، والمرأة تتطيب بما لا يظهر ريحه ظهوراً كثيراً.

ثم بعد ذلك يصلي الرجل والمرأة ـ غير الحائض والنفساء ـ الفريضة إن كان وقت فريضة، وإلاَّ صلى المحرم ركعتين ينوي بهما سنة الوضوء، وليس هناك ركعتان خاصة بالإِحرام، ثم إذا فرغ من الصلاة نوى الإِحرام بعد ذلك.

و ـ أنواع النسك التي يحرم الحاج بأيها شاء:

أنواع النسك ثلاثة: (تمتع ـ قران ـ إفراد).

(١) التمتع[١]:

وهو أن تنوي الإِحرام بالعمرة في أشهر الحج من الميقات، وإذا أديت مناسكها حللت من إحرامك ثم تحرم بعد ذلك من مكة بالحج ـ في اليوم الثامن ـ[٢].

(٢) القِرَان:

هو أن تحرم بالعمرة والحج معاً من الميقات أو تحرم بالعمرة ثم تُدخل عليها الحج قبل الشروع في طوافها وتبقى في إحرامك إلى

---

(١) التمتع هو أفضل الأنساك على الصحيح لقوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**».

(٢) حاضروا المسجد الحرام هم أهل الحرم ومن كانوا قريبين منه بحيث لا يكون بينهم وبين الحرم مسافة تعد سفراً، كأهل الشرائع ونحوهم، فإنه لا هدي عليهم، وأما من كانوا بعيدين من الحرم، بحيث يكون بينهم وبينه مسافة تعد سفراً كأهل جدة، فإنه يلزمهم الهدي. (المنهج لمريد العمرة والحج ص١٥).

أن ترمي الجمرة يوم العيد وتحلق رأسك وتهدي كالمتمتع.

(٣) الإفراد:

وهو أن تحرم بالحج فقط من الميقات وتبقى في إحرامك إلى أن ترمي الجمرة يوم العيد وتحلق رأسك ولا هدي عليك.

وسيأتي تفصيل ما يتعلق بأنواع النسك وما يفعل كل ذي منسك منها.

هـ- ما يقال عند الإحرام وبعده:

(١) المتمتع: يستحب أن يقول: اللهم إني أريد الإحرام بالعمرة متمتعاً بها إلى الحج فيسرها لي وتقبلها مني.

(٢) القارن: يقول: اللهم إني أريد الإحرام بالعمرة والحج، أو لبيك اللهم عمرة وحجاً.

(٣) المفرد: يقول اللهم إني أريد الإحرام بالحج أو لبيك اللهم حجاً.

إذا كان المحرم يحس بمرض أو يخشى أن يعوقه عائق عن أداء النسك فله أن يشترط فيقول عند الإحرام: فإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني، فإذا لم يتمكن من إتمام حجه يحل ولا شيء عليه.

وبعد أن ينوي الإحرام يبدأ بالتلبية بصيغتها المعروفة: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**» يرفع الرجل بها صوته والمرأة تخفض صوتها بها.

ي ـ ما يحرم فعله بعد عقد نية الإحرام :

١ ـ يحرم على الذكر والأنثى بعد عقد نية الإحرام التطيب بجميع أنواع الطيب لا في البدن ولا في الثياب ويحرم عليهما قصد شم الطيب كالأطعمة والأشربة المطيبة والأدْهان المطيبة والصابون المطيب.

٢ ـ يحرم على الذكر والأنثى إزالة الشعر من الرأس وجميع البدن بأي وسيلة، وتقليم الأظافر؛ إلا إذا انكسر ظفره وتأذى به فلا بأس أن يقصر المؤذي منه فقط ولا شيء عليه.

٣ ـ يحرم على الذكر والأنثى قتل الصيد البري والإعانة على قتله سواء في داخل الحرم أو خارجه.

أما قطع الشجر، فإنه يحرم قطعه على المحرم وغير المحرم؛ إذا كان داخل أميال الحرم، إما إذا كان خارجها فيجوز قطعه، فلو كان في عرفة مثلاً يجوز قطعه، وكذلك الأشجار الميتة لا يحرم قطعها.

٤ ـ يحرم على الذكر والأنثى الجماع ودواعيه من خطبة وعقد نكاح وتحدث عنه.

٥ ـ يحرم على الذكر خاصة تغطية رأسه بشيء ملاصق كالعمامة،

والطاقية، والغترة ونحو ذلك، ولا بأس أن يستظل بالشمسية والخيمة، ويجوز للمحرم أن يحمل المتاع على رأسه إذا لم يكن قصده ستر الرأس.

٦ - يحرم على الذكر خاصة لبس المخيط من الثياب والفنائل والشراب ونحوها، ولا بأس بعقد الكمر للنفقة، ولبس النظارات والساعة والنعلين والخفين القصيرين تحت الكعبين.

٧ - يحرم على المرأة لبس البرقع والنقاب وما خيط على قدر الوجه، ولبس القفازين وهما ما يخاط أو ينسج على قدر الكفين يدخلان فيهما.

ثانياً: ما يفعله الحاج عند وصوله إلى مكة

ثُـم أتينـا البلـد الحـرامـا   والقلبُ بالحبِّ له قد هاما
ثُـمَّ لمحنـا الـركـن والمقـامـا   كـم دمعـة سحّـت لـه سجـامـا
هناك نبعث الصلاة والسلاما   لخيـر شهـمٍ حطـم الأصنـامـا
وقد وجدنا الفضل والإنعاما   في زمزم كَم أذهبت أسقاما

(أ) ما يفعله المتمتع:

إذا وصلت أخي الحاج إلى مكة المكرمة وكنت متمتعاً فإنك تقوم بأداء مناسك العمرة وحينما تصل إلى المسجد الحرام ينبغي أن تبدأ الدخول فيه مقدماً رجلك اليمنى قائلاً: «**بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**». ثم تتقدم إلى الحجر الأسود لتبتدىء الطواف فتستلم الحجر بيدك اليمنى وتقبله إذا تيسّر ذلك، فإن لم يتيسر لك استلامه وتقبيله فإنك تستقبله وتشير إليه بيدك وكن حذراً من مزاحمة الناس وإيذائهم من أجل تقبيل الحجر الأسود، فقد قال ﷺ لعمر بن الخطاب: «**إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف إن وجدت خلوةً فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبر**»

[رواه أحمد (١/ ٢٨) والبيهقي (٥/ ٨٠)].

ثم تقول عند استلام الحجر: «**بسم الله ـ الله أكبر**»، «**اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاءً بعهدك واتباعاً لسنة نبيك ﷺ**».

وكل شوط من أشواط الطواف يبدأ بالحجر الأسود وينتهي عنده..

أما الركن اليماني فإنك تستلمه من غير تقبيل وإن لم تتمكن من استلامه تمضي من غير أن تشير إليه. والدعاء المأثور في الطواف هو فقط ما يقال بين الركن اليماني والحجر الأسود: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**».

وهكذا كلما مررت بالحجر الأسود تكبر ثم تدعو بما تشاء أو تذكر الله تعالى بماتحب، أو تقرأ من القرآن ما تريد ويشترط لصحة الطواف: النية ومحلها القلب ولا يتلفظ بها، والطهارة، وستر العورة، وإكمال سبعة أشواط، وأن يجعل البيت عن يساره، وأن يطوف من وراء حِجْر إسماعيل فإن اخترقه لم يتم شوطه؛ لأن أغلبه من الكعبة.

ويستحب في طواف العمرة وطواف القدوم أمران:

الأول: الاضطباع وهو أن يخرج الرجل كتفه الأيمن من ابتداء الطواف إلى انتهائه.

الثاني: الرمل: في الأشواط الثلاثة الأولى فقط، والرمل هو المشي مع تقارب الخطى.

أخي الحبيب يا ضيف السميع المجيب:

إذا أتممت الطواف سبعة أشواط تقدم إلى مقام إبراهيم ثم صلِّ ركعتين خلفه إذا أمكن، فإن لم تستطع ففي أي مكان من الحرم؛ تقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ بعد الفاتحة أيضاً.

يروق لي منظر البيت العتيق إذا بدا لعيني في الإشراق والطَّفَلِ
كأن جبهته السوداء قد نسجت من حبة القلب أومن أسود المُقَلِ

ثم تنطلق بعد ذلك ويستحب أن تشرب من ماء زمزم ثم تخرج إلى المسعى وتسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ـ وهذا سعي العمرة ـ تبدأ الشوط الأول من الصفا وتنهيه بالمروة وتبدأ الشوط الثاني بالمروة وتنهيه بالصفا.

وإذا دنا المحرم من الصفا قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآية.

ثم يرقى على الصفا حتى يرى الكعبة إن أمكن فيستقبلها ويرفع يديه ويحمد الله ويدعو ما شاء أن يدعو، وكان من دعاء النبي ﷺ هنا: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**» ويكرر ذلك ثلاث مرات ويدعو بين ذلك.

أخي الكريم يا ضيف الكريم :

ثم تنزل من الصفا إلى المروة ماشياً فإذا بلغت العلم الأخضر

تركض ركضاً شديداً حتى تصل إلى الآخَر ـ إلا النساء ـ فإذا وصلتَ المروة تصعد عليها وتصنع مثل ما صنعتَ على الصفا، وتقول ما قلته هنالك، فإذا أتممت سبعة أشواط تذهب فتقصر من جميع شعر الرأس ولا تحلق رأسك إلا إذا كان هنالك مدة بين العمرة والحج يمكن أن ينبت فيها الشعر. وقد أمر ﷺ أصحابه في حجة الوداع أن يقصروا للعمرة ولم يأمرهم بالحلق؛ لأن قدومهم كان صبيحة الرابع من ذي الحجة، أما المرأة فإنها تقصر من شعرها قدر أنملة.

وبهذا تكون أعمال العمرة قد انتهت وتحل من إحرامك إحلالاً كاملاً ويحل لك كل ما كان ممنوعاً بسبب الإحرام.

أركان العمرة: الإحرام ـ الطواف ـ السعي.

واجباتها: الإحرام من الميقات المعتبر لها ـ والحلق أو التقصير.

(٢) مايفعله القارن والمفرد:

أخي في الإسلام يا ضيف الملك العلاّم:

وإن كنت عند وصولك إلى مكة قارناً أو مفرداً فإنه يستحب لك أن تطوف للقدوم سبعة أشواط تصلي بعدها ركعتي الطواف، ثم إن شئت أن تقدم سعي القران إن كنت قارناً أو سعي الحج إن كنت مفرداً، فتسعى بعد طواف القدوم، جاز لك ذلك، ولك تأخيره فتسعى بعد طواف الإفاضة، ثم تبقى بعد طواف القدوم في إحرامك من الميقات إلى يوم العيد.

أعمال الحج وصفته

تبدأ أعمال الحج من اليوم الثامن وهو المسمى بيوم التروية[١].

١ ـ أعمال يوم التروية :

ثم دلفنا بعدها إلى منى — وكلنا يطمع في نيل المنىٰ
نشدوا جميعاً: ربنا ياربنا — لبيك لبيك فلا تَردَّنا
بتنا وصلينا هناك خمسنا — وبشروق الشمس يَبْدا سيرنا

* * *

وذاك طبعاً في صباح التاسع — سيراً على منوال خير شافع
يا خالقي يا ذا الحنان الواسعِ — ارحم لظى قلب وجفن دامع

في هذا اليوم يستحب للمتمتع الذي حل من عمرته أن يحرم بالحج ضحىً فيفعل قبل إحرامه بالحج مثل ما فعل قبل إحرامه بالعمرة من الغسل والطيب والصلاة ثم يحرم بالحج من مكانه الذي هو نازل فيه، أما القارن والمفرد فلا يزالان في إحرامهما من الميقات، ويخرج الجميع إلى منى قبل الظهر، ويصلون الظهر والعصر والمغرب والعشاء كل صلاة في وقتها مع قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين ويبيتون بمنى ليلة التاسع ويصلون الفجر فيها، والمبيت بمنى في تلك الليلة سُنَّةٌ لو تركه الحاج فلا شيء عليه.

---

(١) سمي بذلك لأن الحجاج كانوا يروون الماء فيه.

ومن كان نازلاً في منى قبل يوم التروية فإنه يُحرِم يوم التروية من منى ضحىً كغيره.

٢ـ الوقوف بعرفة وما يفعل في هذا اليوم :

ثمَّ وصلنا بعدها المعَرَّفا وباطل حج الذي ما وقفا

وربنا على الجموع أشرفا قد بشر الجميع أنه عفا

يارب فارحم مذنباً قد أسرفا كفاه حمل الذنب ياربِّ كفى

إذا طلعت الشمس يوم عرفة سار الحجاج إلى عرفة بسكينة ووقار وتلبية فينزل الحاج بنمرة إلى الزوال إن تيسر له وإلا فلا حرج؛ لأن النزول بنمرة سنة، فإذا زالت الشمس صلى الظهر والعصر جمعاً وقصراً ركعتين ركعتين جمع تقديم كما فعل النبي ﷺ ليطول وقت الوقوف والدعاء ثم يتفرغ الحاج بعد الصلاة للذكر والدعاء والتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ ويدعو بما أحب رافعاً يديه مستقبلاً القبلة. وكان أكثر دعاء النبي ﷺ في ذلك الموقف العظيم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» وعرفة كلها موقف إلا بطن عرنة كما قال ﷺ، فإن حصل له ملل أو تعب وأراد أن يَستجمَّ بالتحدث مع أصحابه بالأحاديث النافعة أو قراءة ما تيسر من الكتب المفيدة أو غير ذلك من شغل الوقت بما يفيد فذلك أمر حسن ثم يعود بعد ذلك إلى الدعاء والتضرع واغتنام بركة هذا الموقف العظيم، فإذا غربت

الشمس ينصرف الحجاج إلى مزدلفة ومن انصرف قبل الغروب وخرج من عرفة وجب عليه الرجوع إليها والبقاء فيها إلى الغروب، فإن لم يرجع أثم وعليه فدية.

وينبغي أن يسود الحجاج أثناء انصرافهم من عرفة السكينة والوقار ويشتغلون بالتلبية والاستغفار.

٣ ـ المبيت بمزدلفة :

بعد غروب الشمس يوم عرفة تقدم الجمع إلى مزدلفة
ساروا وكان السير في خير صِفَة والكلُّ يدعو والدموع واكفة
بها العِشَاءان بَدَتْ مؤْتلفة جمعاً وقصراً عن نبيٍّ المعرفة
بتناوهاجت في النفوس العاطفة لما تذكرنا القرون السالفة

* * *

ثم أَفَضنا وأتينا المشعرا لِسُنَّةٍ قد سَنَّها خير الورى
حيث دعا هناك ثم استغفرا وكان لله تَقيًّا شاكرا

أخي في الإيمان يا ضيف الرحمن :

إذا وصل الحجاج إلى مزدلفة فإنهم يُصلُّون المغرب والعشاء جمعاً بأذان وإقامتين مع قصر صلاة العشاء إلى ركعتين، ثم ينزلون ويبيتون بها. فإذا انتصف الليل جاز للضعفة من النساء والصغار والكبار ومن يحتاجونه من الأقوياء لخدمتهم، جاز لهم الدفع من مزدلفة إلى منى. أما الأقوياء الذين ليس معهم ضعفة فالأحوط في حقهم إكمال المبيت إلى الفجر، فإذا تبين الفجر يصلون الفجر في

أول وقته ثم يشتغلون بالدعاء والتضرع إلى الله إلى قرب طلوع الشمس، وإذا تيسر الوقوف بالمشعر الحرام والدعاء عنده فحسن، وإذا لم يتيسر فيدعون في أي مكان لقوله ﷺ: **«وقفت هنا ومزدلفة كلها موقف»**.

فإذا أسفر جداً يدفع الحجاج إلى منى قبل طلوع الشمس، ولا يجوز الدفع من مزدلفة قبل منتصف الليل فمن انصرف قبله أثم ولزمته فدية؛ لأن المبيت بها واجب من واجبات الحج.

أعمال الحج في يوم العيد :

ـ الرمي. ـ الهدي. ـ الحلق. ـ الطواف والسعي.

(١) الرمي :

ثم أتينا لمِنَى من بُكره ومظهرين للكريم شكره
نكبر لله ونرمي الجمرة ممتثلين للنَّبي أمره

إذا دفع الحجاج من مزدلفة إلى منى فإنهم يأخذون سبع حصيات لرمي جمرة العقبة سواءً من مزدلفة أو من طريقهم، كل حصاة أكبر من حبة الحمص بقليل ـ أو بقدر نواة التمر تقريباً ـ فإذا وصلوا إلى منى رموا الجمرة الكبرى ـ جمرة العقبة ـ وهي الأخيرة مما يلي مكة، فترُمى بسبع حصيات متعاقبات يرفع يديه مع كل حصاة ويقول: «الله أكبر»، ولابد أن تقع كل حصاة في حوض الجمرة سواءً استقرت فيه أو خرجت منه بعد ذلك. وليس شرطاً أن تضرب الحصاة في الشاخص ـ العمود ـ. **ووقت رمي جمرة العقبة**

يبدأ من منتصف ليلة العاشر ويستمر إلى غروب الشمس من اليوم العاشر. والأفضل للأقوياء أن يرموا بعد طلوع الشمس من هذا اليوم ـ اليوم العاشر ـ.

٢ ـ الهدي :

وبعد رمْي هَدْينا ذبحنا　　لعلّنا في سعينا ربحنا
بما نُكِنُّ في النفوس بُحنا　　من الذنوب والمعاصي نُحْنَا
ندعوك يا إلهنا سامحنا　　ومن عظيم ذنبنا أرحْنا

بعد رمي جمرة العقبة يذبح الهدي من كان عليه هدي، وهما المتمتع والقارن، ووقت الذبح يبدأ بعد طلوع الشمس من يوم العيد، ويستمر إلى غروب الشمس من اليوم الثالث عشر ـ أي يوم العيدوثلاثة أيام بعده ـ ويستحب أن يأكل من هديه ويهدي ويتصدق

٣ ـ الحلق أو التقصير:

وبعد ذا الحلقُ أو التقصيرُ　　كما يحب الخالق النصيرُ
على مراد ربنا نسيرُ　　والكلُّ في قبضته أسيرُ

بعد ذبح الهدي يحلق الحاج رأسه أو يقصر من جميعه فلابد أن يعم التقصير جميع الرأس، أما المرأة فإنها تقصر من شعرها قدر أنملة من كل ضفيرة، أو تجمع الشعر إن لم يكن ضفائر وتقص من رؤوسه قدر أنملة. فإذا رمى الحاج جمرة العقبة يوم العيد وحلق رأسه أو قصره فبهذين الأمرين يعتبر تحلل التحلل الأول وجاز له جميع محظورات الإحرام إلاَّ النساء، فإنه لا يجوز له أن يباشر

زوجته أو أن ينظر إليها بشهوة حتى يطوف بالبيت طواف الإفاضة.

٤ ـ الطواف والسعي :

ثم لبسنا أحسن اللباسِ ... ولان منّا كلُّ قلبٍ قاسي
سرنا إلى الطواف في إيناسِ ... من زمزمٍ نشرب خير كاسِ
ولم نبالِ بازدحام الناس ... وما نلاقي من ضنىً وباسِ
ها نحن قد طفنا طواف الحجِّ ... من بعد عجٍّ قد مضى وثجِّ
وفي عطاء ربنا نُرَجِّي ... والله من هول الجحيم يُنجي
بين الصفا ومروة سعينا ... وكُلُّنا نقول صادقينا:
«رباه لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا»

بعد الرمي وذبح الهدي والحلق أو التقصير، يأتي العمل الرابع من أعمال يوم العيد وهو الذهاب إلى المسجد الحرام إذا تيسر له في هذا اليوم[1]، فيطوف طواف الإفاضة ويسعى بعده إن كان متمتعاً، أو كان الحاج قارناً أو مفرداً ولم يسع بعد طواف القدوم.

والطواف في هذا اليوم أفضل وللحاج تأخيره، ووقته يبدأ من اليوم العاشر إلى آخر ذي الحجة، والأفضل أن لا يؤخره عن أيام التشريق. ثم بعد الطواف والسعي يرجع إلى منى فيبيت بها.

---

(١) السنة أن يتطيب إذا أراد النزول إلى مكة للطواف بعد الرمي والحلق لقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«كنت أُطيب النبي ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت»**.

تنبيهات :

١ ـ ترتيب الأعمال في يوم العيد على النحو التالي:
الرمي ـ الذبح ـ الحلق أو التقصير ـ طواف الإفاضة والسعي بعده. ولو قدَّم بعضها على بعض فلا بأس بذلك.

٢ ـ لا يجزىء في الهدي إلا ما يجزىء في الأضحية؛ بأن يكون قد بلغ السن المحدد شرعاً. وأن تكون سالمة من العيوب.

٣ ـ من لم يقدر على تحصيل الهدي صام عشرة أيام: ثلاثة أيام منها في الحج، والأفضل أن تكون قبل يوم عرفة ويجوز صيامها في أيام التشريق: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، ولا يصوم يوم العيد ولا يوم عرفة، ويصوم الباقي منها إذا رجع إلى أهله.

٥ ـ أيام التشريق ومايُفعل فيها :

أيام التشريق هي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، ويجب على الحاج أن يفعل في هذه الأيام أمرين:

١ ـ المبيت في منى ليالي تلك الأيام، بأن يمكث فيها معظم الليل، لأن المبيت بها واجب من واجبات الحج.

٢ ـ رمي الجمار الثلاث في تلك الأيام بعد زوال الشمس من كل يوم. ويصلي كل صلاة في وقتها مع قصر الرباعية إلى ركعتين ولا يجمع.

٦ ـ صفة رمي الجمار :

ثم رجعنا بعدها إلى منى بتنا ثلاثاً بعد يوم عيدنا
وليلتين قد يبيت بعضُنا ومن تأنّى كان ذاك أحسنا
نرمي الجمار طاعةً لربنا بعد زوال الشمس كان رمينا
أكلٌ وشربٌ وسرورٌ وهَنَا ندعو السميع أن يتم حجنا

في اليوم الحادي عشر إذا زالت الشمس ـ معنى زوال الشمس: تحرَّكت من كبد السماء إلى جهة الغرب ـ أخذ معه إحدى وعشرين حصاة من المكان الذي هو نازل فيه أو من الطريق ثم يأتي الجمرة الصغرى، وهي التي تلي منى، فيرميها بسبع حصيات متعاقبات واحدة بعد الأخرى ويكبر مع كل حصاة ثم يتقدم قليلاً ويدعو دعاءً طويلاً بما أحب، فإن شق عليه طول الوقوف والدعاء دعا بما يسهل عليه ولو قليلاً ليوافق السنة.

ثم يأتي الجمرة الوسطى فيرميها بسبع حصيات متعاقبات يكبر مع كل حصاة ثم يأخذ ذات الشمال فيقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه ويدعو دعاءً طويلاً إن تيسر له وإلا وقف بقدر ما يتيسر ولا ينبغي أن يترك الوقوف للدعاء؛ لأنه سنة وكثير من الناس يهمله إما جهلاً أو تهاوناً، وكلما أُضيعت السنة كان فعلها ونشرها بين الناس آكد.

ثم يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات متعاقبات يكبر مع كل حصاة ثم ينصرف ولا يدعو بعدها.

ثم في اليوم الثاني عشر يفعل مثل ذلك تماماً بعد زوال

الشمس.

ثم إن شاء في اليوم الثاني عشر بعد رميه الجمار أن يتعجل فيرحل من منى قبل غروب الشمس فله ذلك، وإن غربت عليه الشمس ليلة الثالث عشر قبل أن يرتحل فإنه يبيت بمنى تلك الليلة[١] ويرمي الجمار الثلاث بعد الزوال في اليوم الثالث عشر، وهذا يسمى بالتأخير وهو أفضل من التعجيل. ويجوز للعاجز عن الرمي كالمريض والمرأة الحامل والطفل وكبير السن أن يوكل من يرمي عنه الجمرات.

٧ ـ طواف الوداع :

زادت هموم القلب والتياعي لما أتىٰ الطواف للوداعِ
إلى اللقا يا أطهر البقاعِ يا سلوتي يا غاية الإمتاعِ
يا خالقي يا من يجيب الداعي أرجوك فاقبل صالح المساعي

إذا أراد الحاج الخروج من مكة المكرمة إلى بلده لا يخرج حتى يطوف طواف الوداع لقول النبي ﷺ: «**لا ينفر أحدٌ حتى يكون آخر عهده بالبيت**» [متفق عليه]. ومن أخَّر طواف الإفاضة فأدّاه عند سفره أجزأه عن طواف الوداع، ويسقط طواف الوداع عن المرأة الحائض والنفساء فتسافران بلا وداع.

(١) لو غربت الشمس عليه بمنى في اليوم الثاني عشر بغير اختياره مثل أن يكون قد ارتحل وركب لكن تأخر بسبب زحام السيارات ونحوه، فإنه لا يلزمه التأخر، لأن تأخره إلى الغروب بغير اختياره.

فائدة :

أركان الحج أربعة : الإحرام ـ الوقوف بعرفة ـ الطواف ـ السعي.

وواجباته سبعة : الإحرام من الميقات ـ الوقوف بعرفة إلى غروب الشمس ـ المبيت بمزدلفة ـ المبيت بمنى ليالي أيام التشريق ـ رمي الجمار ـ الحلق أو التقصير ـ طواف الوداع.

فمن ترك ركناً لم يتم حجه إلا به.

ومن ترك واجباً وجب عليه بدله فدية يذبحها في مكة ويوزعها على مساكين الحرم، ولا يأكل منها شيئاً.

وبهذا انتهت أعمال الحج. نسأل الله تعالى أن يتقبل من الجميع وأن يجعل حجهم مبروراً وسعيهم مشكوراً.

أَرَبَّ البيت عفوك والمتابا   وألهمنا بعزتك الصوابا
فقد خشعت جوانح كلّ فردٍ   وأحنينا لعزتك الرقابا
وفي البيت العتيق علا هتافٌ   يناشدك المثوبة والمتابا
وقد عبق الأريج وكان مسكاً   وعم القاع واعتنق السحابا

من مخالفات الحج

١ ـ بعض الناس قد يسافر جواً معتمراً أو حاجاً فيتهاون في الإحرام عند مروره على الميقات، بل بعضهم يؤخر الإحرام إلى أن ينزل في أرض المطار، وكلاهما على خطأ.

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ حفظه الله تعالى ـ: «والقادم عن طريق الجو أو البحر يحرم إذا حاذىٰ الميقات أو قبله بيسير حتى يحتاط لسرعة الطائرة أو السفينة فإذا تجاوز من أراد الحج أو العمرة الميقات ولم يرجع إليه وأحرم من مكانه فعليه فدية يذبحها في مكة ويطعمها كلها للفقراء».

٢ ـ كذلك ما يعتقده بعض النساء من أن ثوب الإحرام لابد له من لون خاص، كالأخضر مثلاً، فهذا خلاف الصواب، لأنه لا يتعين لون خاص للثوب الذي تلبسه المرأة في الإحرام وإنما تحرم في ثيابها العادية.

٣ ـ ومما يتعلق بأمر النساء أيضاً أن بعض النساء إذا مرت بالميقات تريد الحج أو العمرة، وكانت حائضاً، فإنها لا تحرم ظناً منها أو من وليها أن الإحرام تشترط له الطهارة فتتجاوز الميقات بدون إحرام. وهذا خطأ واضح؛ لأن الحيض لا يمنع الإحرام، فالحائض تحرم وتفعل كما يفعل الحاج غير الطواف

بالبيت، فإنها تؤخره إلى أن تَطْهُر.

٤ ـ أيضاً ما يعتقده بعض الحجاج والمعتمرين من أن لباس الإحرام الذي لبسه عند الميقات لا يجوز تغييره ولو اتسخ. وهذا خطأ؛ بل يجوز أن يغير ملابس الإحرام بمثلها، وأن يغير حذاءه بحذاء آخر، ولا يتجنب إلا محظورات الإحرام المعروفة.

٥ ـ كثير من الحجاج يلتزم أدعية خاصة في الطواف يقرأها في بعض كتب المناسك وقد يكون مجموعات منهم يتلقونها من قارىء يلقنهم إياها يرددونها بصوت جماعي. وهذا خطأ من ناحيتين:

الأولى: أنه التزم دعاء لم يؤمر بالتزامه في هذا الموطن؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ في الطواف دعاء خاص.

الثانية: أن الدعاء الجماعي بدعة وفيه تشويش على الطائفين. والمشروع أن يدعو كل شخص لنفسه وبدون أن يرفع صوته.

٦ ـ أيضاً أن بعض الرجال إذا أحرموا كشفوا أكتافهم على هيئة الاضطباع وهذا غير مشروع إلاَّ في حالة طواف القدوم أو العمرة، وماعدا ذلك يكون الكتف مستوراً بالرداء في كل الحالات.

٧ ـ بعض الحجاج يُقبل الركن اليماني. وهذا خطأ؛ لأن الركن اليماني يستلم باليد فقط، ولا يُقبل وإنما يُقبل الحجر الأسود،

فالحجر الأسود يُستلم ويُقبل إن أمكن أو يشار إليه عند الازدحام.

٨ ـ ومن المخالفات ما يفعله بعض الطائفين من كونهم يعتقدون أن ركعتي الطواف لابد أن تكون قريباً من المقام فيزدحمون على ذلك ويؤذون الطائفين في أيام الموسم، ويعوقون سير طوافهم، وهذا الظن خطأ. فالركعتان بعد الطواف تجزيان في أي مكان في المسجد.

٩ ـ ومما يتعلق بالنساء ما يقوم به بعضهن من المزاحمة عند الحجر الأسود فتزاحم الرجال بجسمها فيلتصق بها بعض الرجال، وهنا مَكْمنُ الشر والفتنة، فترتكب المحرم وتتسبب في فتنة الآخرين في تحصيل أمر مسنون بل تركه في حقها والحال كما تقدم واجب، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

١٠ ـ الجهر بالنية عند ابتداء الطواف والسعي هومن المخالفات.

١١ ـ بعض الطائفين إذا لم يتمكن من استلام الركن اليماني أشار إليه وكبّر قياساً على الحجر الأسود، والصواب أن الركن اليماني يُستلم إذا أمكن، فإن لم يتمكن فلا يشير إليه.

١٢ ـ ومن المخالفات المتعلقة بالطواف والسعي: استمرار بعضهم في طوافه وسعيه ولو بعد إقامة الصلاة يريد بذلك إكمال الشوط الذي هو فيه، وقد تفوته الركعة لشدة الزحام.

سُئل سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز عن الحكم إذا أُقيمت الصلاة والحاج أو المعتمر لم ينته من إكمال الطواف أو السعي؟

فأجاب سماحته بما نصه: «يصلي مع الناس ثم يكمل طوافه وسعيه ويبدأ من حيث انتهىٰ».

١٣ ـ ومن ذلك أيضاً أن بعض الحجاج ينصرفون من عرفات قبل غروب الشمس. وهذا حرام؛ لأنه خلاف سنة النبي ﷺ، حيث وقف إلى أن غربت الشمس، وغاب قرصها، ولأن الانصراف من عرفة قبل الغروب عمل أهل الجاهلية.

١٤ ـ ومن المخالفات المتعلقة بمزدلفة: ما يحصل من بعض الحجاج من كونهم يشتغلون بلقط حصى الجمار وترك المبادرة إلى صلاة المغرب والعشاء.

وهذا غلط لا أصل له، والنبي ﷺ لم يأمر أن يلتقط له الحصىٰ إلا بعد انصرافه من المشعر إلى منى ومن أي موضع لقط الحصى أجزأه ذلك. ولا يتعين لقطه من مزدلفة بل يجوز لقطه من منى.

١٥ ـ كذلك ما يحصل من بعض الحجاج من رميهم الجمار بشدة وعنف وصراخ وسب وشتم لهذه الشياطين على زعمهم، فهم يتوقعون أنهم يرمون الشياطين فعلاً وهذا غير صحيح.

١٦ ـ ومن ذلك أيضاً رميهم الجمار بحصى كبيرة وبالحذاء (النعل) والخفاف والأخشاب وهذا خطأ كبير.

[راجع كتاب مخالفات الحج ـ عبدالعزيز السدحان]

زيــارة

المسجد النبوي

أتيتُـــك مـــاشيـــاً وودتُّ أنّـــي
ملكـــتُ ســـوادَ عينـــي أمتطيـــهِ
ومـا لـيَ لا أسيـرُ على المـآقـي
إلـــى بلـــدٍ رســـولُ الله فيـــهِ

وفـاضـت مـع الـدمـع العيـونُ مهـابـةً
لأحمـــدَ بيـــن السِّتـــرِ والحجـــرات
وأشـــرق نـــورٌ تحـــت كـــلِّ ثنيـــةٍ
وضـــاع أريـــجٌ تحـــت كـــلِّ حصـــاةٍ
لِمظهـــر ديـــن الله فـــوق تنـــوفـــةٍ
وبـانـي صـريـح المجـد فـوق فـلاةٍ
شعـوبـك فـي شـرق البـلاد وغـربهـا
كـأصحـاب كهـفٍ فـي عميـق سُبـاتِ
بـــأيمـــانهـــم نـــوران: ذكـــرٌ وسنـــةٌ
فمـــا بـــالهـــم فـــي حـــالـــك الظلمـــات
وذلـك مـاضـي مجـدهـم وفخـارهـم
فمـــا ضـــرهـــم لـــو يعملـــون لآتـــي
وهـــذا زمـــانٌ أرضـــه وسمـــاؤه
مجـــالٌ لمقـــدامٍ كبيـــر حيـــاةِ

زيارة المسجد النبوي

زيارة المسجد النبوي سنة ثابتة وإذا أحب الحاج أن يزور المسجد النبوي قبل الحج أو بعده، فإنه ينوي زيارة المسجد لا زيارة القبر، فإنَّ شدَّ الرحال على وجه التعبد لا يكون لزيارة القبور، وإنما يكون للمساجد الثلاثة كما قال ﷺ: «**لا تشدُّ الرحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» [متفق عليه].

وأخبر ﷺ أن الصلاة في مسجده أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام.

[الحديث متفق عليه]

ولكن من الخطأ اعتقاد بعض الناس أن زيارة المسجد النبوي من مكملات الحج، ومستلزماته، وأن الحج لا يتم إلا بها، وهذا غير صحيح.

والأحاديث التي رويت في وجوب زيارة قبر الرسول ﷺ بعد الحج أحاديث غير صحيحة مثل: «**من حج ولم يزرني فقد جفاني**» فهو موضوع [انظر كشف الخفاء (٢/٣٣٨) والإرواء (١١٢٨)]

فإذا وصل الزائر لمسجد رسول الله ﷺ فيقدم رجله اليمنى ويدخل ويقول عند دخوله: «**بسم الله والصلاة والسلام على رسول**

الله ﷺ اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم، وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»، ثم يصلي في الروضة وهي ما بين منبر النبي ﷺ وحجرته التي فيها قبره: لأن ما بينهما روضة من رياض الجنة.

فإذا صلَّى وأراد زيارة قبر النبي ﷺ فليقف أمامه بأدب ووقار وليقل: **«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. أشهد أنك رسول الله حقّاً وأنك قد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده، فجزاك الله عن أُمَّتِك أفضل ما جزى نبياً عن أمته»**.

ثم يأخذ ذات اليمين قليلاً فيسلم على أبي بكر الصديق ويترضى عنه، ثم يأخذ ذات اليمين قليلاً فيسلم على عمر بن الخطاب، ويترضى عنه، وإن دعا لهما بدعاء مناسب فحسن، ولا يجوز لأحد أن يتقرب إلى الله بمسح الحجرة النبوية أو الطواف بها ولا يستقبلها حال الدعاء بل يستقبل القبلة، ومن الأخطاء العظيمة رفع الأصوات عند قبره ﷺ بالأدعية ظناً أن للدعاء عند قبره مزية وهذا خطأ، لأنه لا يشرع الدعاء عند القبور،ورفع الصوت عنده من الأخطاء التى نهى اللهعنها؛ ومن أراد أن يدعوالله تعالى يستقبل القبلة ويدعو في المسجد لاعند القبر؛ لأن قبلة الدعاء هي الكعبة المشرفة.

ويُستحب لمن أتى المدينة أن يزور مقبرة البقيع، ويدعو لهم بالدعاء المأثور لمن زار المقابر: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم**» [رواه مسلم]. وإن أحب أن يزور أُحُداً ليتذكر ما جرى للنبي ﷺ وأصحابه في تلك الغزوة ثم يسلم على الشهداء مثل حمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ فلا بأس بذلك.

ومما يزار في المدينة مسجد قباء لقوله ﷺ: «**من تطهَّر في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلاَّ الصلاة كان له أجر عمرة تامة**».

[صحيح ابن ماجة للألباني (١١٦٠)]

وفّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

رحلة الحج من منظور شاعري

قصيدة مُمتعة يصوِّر فيها الشاعر رحلة الحج وبعض أحداثها ومشاهدها ومواقعها، ويصور فيها شدَّة تعلق المسلم بالبلد الحرام، وعظيم اشتياقه لتلك الديار الطاهرة وهي بعنوان:

الذهبية في الحجة المكية[1]

فيا أين أيام تولّت على الحِمى ... وليلٍ مع العشّاق فيه سهرناه
ونحن لجيران المُحَصّب جيرة ... نوفِّي لهم حُسْن الوداد ونرعاهُ
فهاتيك أيام الحياة وغيرُها ... مَمَاتٌ فيا ليت النَّوَى ما عَهِدْناهُ
وترجع أيام المُحَصّب من مِنَى ... ويبدو ثراه للعيون وحَصْباهُ
نسرّح فيه العيش بين ثمامه ... ونستنشق الأرواحَ طِيب خزاماهُ
فشُدُّوا مطايانا إلى الرَّبْع ثانياً ... فإنّ الهوى عن رَبْعِهم ما ثنيناهُ
ففي رَبْعهم لله بيتٌ مباركٌ ... إليه قلوب الناس تهوي ونهواهُ
يطوف به الجاني فيُغْفَر ذنبُه ... ويسقط عنه إثمه وخطاياهُ
وكم لذّةٍ كم فرحةٍ لِطَوَافِه ... فللّه ما أحلى الطّواف وأهناهُ

---

(١) لأديب قديم اسمه أبوبكر محمد بن رشيد البغدادي، المتوفى سنة ٦٦٢هـ. راجع شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جـ٢، ص٤٥٥.

فيا شوقنا نحو الطّواف وطيبه ... فـذلـك طِيـب لا يُعبَّـر معنـاهُ
فو الله لا ننسى الحِمَى فقلوبُنا ... هناك تركناها فيا كيف ننساهُ
ووالله لا ننسـى زمـانَ مسيـرِنـا ... إليه وكلّ الرّكْب يلتذُّ مسراهُ
وقـد نُسيـتْ أولادنـا ونسـاؤنـا ... وإخواننا والقلب عنهم شغلناهُ
تراءت لنا أعلام وصْلٍ على اللّوَى ... فمن ثم أمسى القلب عنهم لويناهُ
جعلنا إلـه العرش نُصْب عيوننا ... ومَنْ دُونَهُ خلف الظهور نبذناهُ
وسرنا نشقّ البيدَ للبلد الذي ... بجُهْـدٍ وشـقٍّ للنفـوس بلغنـاهُ
رجالاً ورُكْباناً على كلّ ضامرٍ ... ومن كلّ فجٍّ مُقْفِرٍ قد أتيناهُ
نخوض إليه البحرَ والبرَّ والدُّجى ... ولا مفظــع إلاَّ إلــيه قطعنــاهُ
ونطوي الفلا من شدّة الشوق لِلّقا ... فنمشي الفلا نحكي السجل طويناهُ
ولا صَدَّنا عن قصْدنا فَقْدُ أهلنا ... ولا هَجْر جارٍ أو حبيبٍ أَلِفْناهُ
عرفنا الذي نبغي ونطلب فضله ... فهـان علينـا كـلُّ شـيءٍ بـذلنـاهُ
ولو قيل إنَّ النار دون مزاركم ... دفعنـا إليهـا والعـذول دفعنـاهُ
نحجّ لبيتٍ حجّه الرُسْلُ قبلنا ... لنشهد نفعاً في الكتاب وُعِدْناهُ
دعــانــا إليــه الله عنـد بنـائـه ... فقلنــا لــه لبّيــك داعٍ أجبنــاهُ
ومـازال وفـدُ الله يقصـد مكّـة ... إلى أن بدا البيتُ العتيق ورُكْناهُ
فحيّت ضيوف الله بالذِّكْر والدُّعا ... وكبّـرت الحجّـاج حيـن رأينـاهُ
وقد كادت الأرواح تُزْهَق فرحةً ... لِما نحن من عِظْم السرور وجدناهُ
وطفنـا بـه سبْعـاً رَمَلْنـا ثـلاثـة ... وأربعـة مشيـاً كمـا قـد أُمِـرْنـاهُ
كذلك طاف الهاشميُّ محمد ... طواف قُدُومٍ مثل ما طاف طفناهُ

وسالت دموعٌ من غمام جفوننا ... على ما مضى من إثْم ذنبٍ كسبناه
ويوم مِنَى سِرْنا إلى الجبل الذي ... من البُعْد قد حيّا كما قد عهدناهُ
فلا حجّ إلاّ أن يكون بأرضه ... وقوف وهذا في الصّحاح رويناهُ
إليه فؤاد المرء يشعر بالهنا ... ولولاه ما كان الحجاز سلكناهُ
وبتنا بأقطار المُحَصّب من مِنَى ... فيا طيب ليل بالمحصّب بتناهُ
وسرنا إليه طالبين وقوفنا ... عليه ومن كل الوجوه أمَمْنَاه
على عَلَمَيْه للوقوف جلالة ... فلا زالتا تُحْمَى وتُحْرَس أرجاهُ
ولما رأيناه تعالىٰ عجيجُنا ... نلبِّي وبالتهليل منّا ملأناهُ
وفيه نزلنا بكْرةً بذنوبنا ... وما هو من ثقل المعاصي حملناهُ
وبعد زوال الشمس كان وقوفنا ... إلى الليل نبكي والدعا قد أطلناهُ
على عرفات قد وقفنا بموقف ... به الذنب مغفور وفيه محوناهُ
وطُوبى لمن ذاك المقام مقامه ... وبُشراه في يوم التغابن بشراهُ
وبينا حجيج الله بالبيت مُحْدقٌ ... ورحمة ربّ العرش تدنوه وتغشاهُ
تداعت رِفاقٌ بالرحيل فما ترى ... سوى دمع عينٍ بالدماء مزجناهُ
وودّعت الحجاج بيتَ إلٰهها ... وكلّهم تجري من الحزن عيناهُ
فلله كم باكٍ وصاحبِ حسرةٍ ... يودّ بأنّ الله كان توفّاهُ
ولا شَهِد التوديعَ يوماً لبيته ... وإنَّ فراق البيت مُرٌّ وجدناهُ
ووالله لولا أن نؤمّل عودةً ... لَذُقْنا طعامَ الموت حين فجُعْناهُ

الحـــج

دروس وعبر

الحج دروس وعبر

الحج عبادة عظيمة من أجلِّ العبادات، وقربة من أعظم القربات، فيه الانطراح بين يدي الواحد العلّام، وتجديد العهد مع الله على الإسلام، وبه تمحى الخطايا والآثام، ويباهي الله تعالى بعباده ملائكته الكرام، وقبل ذلك وبعده فهو الركن الخامس من أركان الإسلام.

إن الذي يسبر غور هذه العبادة يجد فيها من المعاني العظيمة والحِكَم الرائعة والأسرار البديعة ما يأخذ بالألباب ويدهش العقول ويبهج القلوب، ولكن يا للأسف أصبح فهم بعض المسلمين للحج فهماً ظاهرياً أجوفَ كفهمهم لغيره من العبادات، دون إدراك لِكُنْهِهَا ولا سبر لِغورها، ولا تعمّق في فهمها وتأملها، فالقرآن يتلى ولكن تلاوة حرفية دون تدبر وتأمل، والصلاة تؤدىٰ ولكن صلاة جوفاء باهتة، لا روح لها، مجرد قيام بالحركات الظاهرة دور المرء فيها كدور الآلة الصماء. والصيام كذلك... الخ.

ومن خلال التأمل السريع لحقيقة الحج وأسراره تجلّت لنا هذه الدروس الرائعة والأسرار اليانعة، والعبر النافعة، والتي لا نطيل في شرحها خشية الإملال وإلا فكل درس منها يصلح أن يكون كتاباً

كاملاً، فهذه مجرّد إيماءات وإضاءات.

(١) الحج مظهر من مظاهر التوحيد:

فهذا البيت منذ اللحظة الأولى لبنائه إنما أُقيم على قاعدة التوحيد، والغرض من إقامته هو عبادة الله تعالى وحده وإخلاص العمل له، وقد أمر الله تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتطهيره للطائفين والقائمين والركّع السجود، ليعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئاً ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد عُرف في التأريخ بأنه رمز التوحيد، وعدو الشرك، ومحطم الأوثان، وأبو الملة الحنيفية ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

ولذلك فالحاج منذ اللحظة الأولى لدخوله في هذا النسك يعلن توحيده الخالص لله تعالى في أول كلمة يتلفظ بها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

فهو يعلن أنه إنما أراد بهذا العمل وجه الله تعالى والإخلاص له فكل عمل لابد له من شرطين:

الأول: الإخلاص لله تعالى وحده.

والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

فلابد أن يكون العمل خالصاً صواباً.

الشرك بالله أكبر الكبائر ورأس الآثام ومخرج الإنسان من الإسلام قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . . ﴾.

وقال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

وقال ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عمله لله عز وجل، فليطلب ثوابه من عند غير الله عزّ وجلّ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك**»[١].

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

فالشرك داءٌ عظيم وخطر جسيم، ولا ينبغي أن يصرف الإنسان شيئاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى، بل يُسلم نفسه وجميع أعماله لله تعالى وعلى المرء أن يحذر من الرياء في عمله ولاسيما الحج.

يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «والرِّياء المحْض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة

(١) رواه أحمد ٣/ ٦٦ و٤/ ٢١٥ والترمذي (٣١٥٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٠٤) وصححه ابن حبان (٤٠٤).

الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك أنه حابط للعمل وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة». فالعمل إذا لم يقصد به الإنسان إلا الرياء فهو شرك بالله ومردود على صاحبه.

والمؤمن لا يتجه إلاَّ إلى الله وحده، فلا يجوز له أن يرائي أحداً أو يدعو أحداً من دون الله أو يتوسل بالصالحين ويدعوهم، ويرجوهم من دون الله؛ لا الأحياء ولا الأموات، ولا يجوز له التبرك بالمقابر ولا التمسح بأضرحة الأولياء، ولا دعاؤهم من دون الله، ولا الذبح لغير الله، ولا يصرف أي عمل من أعماله الظاهرة والباطنة إلاَّ لله وحده.

ولذلك، فإننا في الحج نزيد عقيدة التوحيد رسوخاً في القلوب، ونعلن توحيدنا لعلاَّم الغيوب اتباعاً لأنبياء الله تعالى الذين ما جاؤا إلاَّ لحرب الشرك، ونشر توحيد الله تعالى في الأرض، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ ويقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

رَبِّي: لقد أسكنتُ من ذريتي بالوادي في قلب الهجير الظَّامي
فاجعل إلـٰهي كل أفْئدة الورى تهْوِي إليهم في رضىً وسلامِ
وهنا بظل «البيت» أشرق أمْنُهم وهـوت إليهـم صفْـوة الأقـوام

عينٌ من الماء النمير تفجَّرتْ فإذا الرضيع يُحفُّ بالإنْعام
وإذا بـزمـزم عيْـن كـل حقيقـةٍ في عمقها غرقت ذرا الآثام
وإذا الجبال الصمُّ ترْوي قصَّةً أحـداثهـا صـورٌ مـن الإلهـام

(٢) العبودية التامة لله تعالى والاستجابة له والسير على طاعته :

فقول الحاج: لبيك اللهم لبيك. معناها إجابة بعد إجابة لك يارب، وديدن المؤمنين دائماً أنهم يقولون: سمعنا وأطعنا.

وتظهر العبودية في الحج من خلال أداء الإنسان لكثير من الأعمال دون أن يفهم لها معنى، أو يدرك لها مغزى، ودون أن يتردد في ذلك أو يسأل عن الأسباب كالرمي ـ وتقبيل الحجر... وغيرها، فإنه يقوم بها طاعة لله تعالى.

عمر بن الخطاب يُقَبِّل الحجر الأسود، فيقول: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

الحجـر الأسـود قبّلتُـه بشَفتَيْ قلبي وكلي وَلَهْ
لا لاعتقـادي أنـهُ نـافـعٌ بل لاقتدائي بالذي قبَّلَهْ
محمـدٌ أطهـرُ أنفـاسـه كانت على صفحته مرسله
قَبَّلـه والنُّـور مـن ثغـرهِ يشرق آياتِ هدىً مُنْزَله

(٣) ربط حاضر الأمة بماضيها:

هذا البيت بما له من ذكريات، وهذا البلد الأمين بمافيه من

إيحاءات يجعل المؤمن يتذكر تأريخه الطويل ويتذكر أسلافه الذين ساروا على هذا الطريق، يتذكر مسيرة الدعوة الخالدة، ويتذكر أولئك الرجال الذين رفعوا راية التوحيد قبله ابتداءً من نوح ـ عليه السلام ـ وانتهاءً بمحمد ﷺ، ثم الدعاة الصادقين من بعده، الذين حملوا هذه الراية، فيرتبط هذا الموحِّد بذلك الموكب الإيماني الطويل الذي يضرب بجذوره في أعماق التأريخ فرحلة التوحيد والدعوة إليه قديمة قدم البشرية فكأن الإنسان بمجيئه هذا يؤكد تلك المسيرة الطويلة، العميقة، العريقة، الوثيقة، المباركة. ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

(٤) الحج فيه إعلان بهدم كيان الجاهلية من أساسه:

وذلك ما حدث من المصطفى ﷺ بقوله حينما خطب في حجة الوداع وأهدر كل أمر من أمور الجاهلية ووضعه تحت قَدمِه.

وأما فعله فهو في مخالفته للمشركين فيما كانوا يفعلون مثل ما كانت تفعل قريش حينما كانت ترى أن لها ميزة خاصة، فلا تفيض من حيث أفاض الناس مثلاً إلى غير ذلك. ولقد كانت هذه الحساسية المفرطة من مشابهة الجاهلية أو التلبس بعمل من أعمالها سمةً عامةً عند الصحابة فكانوا ينفرون من أي عمل فيه تشبه بأعمال الجاهلية.

(٥) الحج يربي فينا قاعدة : توحيد مصدر التلقي :

وذلك مأخوذٌ من قوله ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**» [رواه مسلم].

وهذه القاعدة يجب أن تسري في جميع أمورنا التعبدية، فلا يعيش الإنسان متردداً أو حائراً. تارة يُيَمِّم وجهه جهة الغرب، وتارة جهة الشرق، بل تكون وجهته مع محمد ﷺ.

(٦) تتجلى في الحج روح المساواة والوحدة والسلام :

المساواة واضحةٌ جليةٌ فالجميع قد اطَّرحوا الملابس والأزياء وظهروا في زيٍّ واحد، الغني والفقير، والأمير والحقير.

والوحدة ترى معناها في الحج واضحاً جلياً كالشمس؛ وحدةٌ في المشاعر، وحدةٌ في الشعائر، وحدةٌ في الهدف، وحدةٌ في العمل، وحدةٌ في القول، لا إقليمية، لا عنصرية، لا عصبية للون أو جنس أو طبقة.

إنها مرفوضة في الإسلام «**الناس من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**».

أرى النـاس أصنـافـاً ومـن كـل بقعـةٍ
إليـك انتهـوا مـن غـربـة وشتـاتِ
تسـاووا فـلا أنسـاب فيهـا تفـاوتٌ
لـديـك ولا الأقـدار مختلفـاتِ

ولابد أن يحقق المسلمون في الحج معنى التوحيد والوحدة، التوحيد حق الله تعالى، والوحدة حق الجماعة المسلمة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ

أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

والسلام: من المبادىء التي سبق إليها الإسلام، فالحج طريقة فذَّة لتدريب المسلم على السلام وإشرابه روح السلام ـ فهو رحلة سلام ـ إلى أرض سلام في زمن سلام ـ والحاج يعيش فترة سلام مع كل من حوله حتى مع الحيوانات والطيور وغيرها. فهو ممنوع من الاعتداء على شيء منها.

(٧) التجرد من شهوات النفس وحبسها عن كل ماسوى الله تعالى:

وذلك يبدو من أول المناسك؛ وهو الإحرام والالتزام بآدابه والبعد عن محظوراته.

(٨) التعود على مكارم الأخلاق وجميل الطباع:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ **«من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»** ففي الحج يتعلم الإنسان الصبر والتحمل وضبط اللسان وكبح النفس الأمَّارة بالسوء.

إن الخنا دَنَسُ النُّفُوسِ وإنني ... طَهَّرْتُ هَذِي النَّفْسَ من أدنَاسِهَا
ومَطَامِعُ الدُّنْيَا تُذِلُّ ولا أرَى ... شيئاً أعَزَّ لِمُهْجَةٍ مِنْ يَاسِهَا
مَنْ عَفَّ لَمْ يُذْمَمْ وَمَنْ تَبِعَ الخنَا ... لَمْ تُخْلِهِ التَّبِعَاتُ مِنْ أَوْكَاسِهَا
زَيِّنْ خِصَالَكَ بالسَّمَاحِ ولاَ تُرِدْ ... دُنْيَا تَرَاكَ وأنتَ بَعْضُ خِسَاسِهَا
ومَتَى رأَيْتَ يد امْرِىءٍ مَمْدُودَةً ... تَبْغِي مُوَاسَاةَ الكَرِيمِ فَوَاسِهَا

خَيْرُ الأكُفِّ السَّابِقَاتِ بِجُودِهَا كَفٌّ تَجُودُ عَلَيْكَ فِي إفْلاَسِهَا

(٩) الحج فيه شحنةٌ روحيةٌ وعاطفية :

فإن الأرض المقدسة وما لها من ذكريات، وشعائر الحج وما لها من أثر في النفس، وقوة الجماعة وما لها من إيحاءات، كل هذا يترك أثره واضحاً في أعماق المسلم ويغذي فيه حبه لله ولرسوله ولدينه ولمن عزروه ونصروه واتبعوه.

وكذلك الإنسان إذا علم أن الله وعده بمغفرة الذنوب وأنه سيرجع كيوم ولدته أمه، فإن ذلك يشجعه ويقويه على العبادة ويفتح أمامه أبواب الأمل على مصاريعها.

(١٠) الحج تعود على ركوب المشاق :

ففي الحج مفارقة الأهل والأحبة والتضحية بالراحة والدعة والأموال طلباً لمرضاة الله تعالى.

(١١) الحج يذكّر الإنسان باليوم الآخر :

فالإنسان منذ أن يخلع ملابسه ويلبس ملابس الإحرام البيضاء. فإن ذلك يذكره باليوم الذي يُجرد فيه من ملابسه بعد موته ويكفن في قطعة من القماش الأبيض وقبل ذلك سفره عن الأوطان ووداعه لأهله وأبنائه وأقاربه راحلاً للحج ينبغي أن يذكره بسفره الأخير إلى الدار الأخرة.

على المسلم أن يتذكر بزحمة الطواف والسعي والرمي ذلك

الزحام الرهيب يوم يقوم الناس لرب العالمين يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وأن يتذكر بحرارة الشمس في مكة يوماً تدنو الشمس فيه من العباد قدر ميل، وأن يتذكر بالتعب والضنك والعرق المتصبب من جسده وأجساد الناس من حوله ذلك اليوم الرهيب والموقف المهول يوم يبلغ الناس في العرق مبلغاً عظيماً فمنهم من يصل إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً.

المسلم يتذكر بوقوفه يوم عرفة وقوفَه بين يدي ربه سبحانه وتعالى إلى غير ذلك من هذه المواقف الرهيبة المؤثرة التي تذكر الإنسان بذلك اليوم العصيب الذي نسأل الله تعالى أن يجعلنا فيه من الآمنين والفائزين.. آمين.

أيا فُرقة الأحباب لابدَّ لي منكِ ... ويـا دار دنيـا إنني راحـلٌ عنـكِ
ويا قصر الأيامِ ما لي وللمنى ... وياسكرات الموت مالي وللضحكِ
فمـا لـيَ لا أبكـي لنفسـي بعبـرةٍ ... إذا كنت لاأبكي لنفسي فمن يبكي
فيـارب فـرّج كَـرْبنـا يـا مليكنـا ... وهوِّن علينا لوعة الهم والضنكِ

* * *

حتى متى تسقي النفوس بكأسها ... ريـب المنـون وأنـت لاهٍ تـرتعُ
أفقد رضيت بأن تعلل بالمنىٰ ... وإلـى المنيـة كـل يـوم تُـدفـعُ
أحـلام نـوم أو كظـل زائـل ... إن اللبيـب بمثلهـا لا يُخـدعُ
فَتَـزَوَّدنَّ ليـوم فقـرك واجتهـد ... واجمع لنفسك لا لغيرك تجمعُ

(١٢) التعود على النظام والدقة والمحافظة على الوقت ومعرفة قيمة الزمن :

كل هذه الأمور يتعلمها الحاج في حجه، فلابد من ترتيب أعمال الحج ولا يصح القيام بها بفوضوية وارتجال.

فمثلاً لا يقف بمزدلفة قبل عرفة، ولا يقف بها بعد أن يرمي... الخ.

وكذلك الزمن له أهميته فلا يجوز للحاج الانصراف من عرفة قبل غروب الشمس، ولا حتى بخمس دقائق، وكذلك لا يرمي الجمرات قبل الزوال إلى غير ذلك مما يبين أهمية الوقت وقيمة الزمن، وإقامة الحياة على النظام.

(١٣) العبرة من مرور الأيام وسرعة انقضائها :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

إن الإنسان بالحج يودع عاماً ويستقبل عاماً جديداً، هكذا يمضي الزمن بسرعته الغريبة والعجيبة، وهكذا يمضي ولا يتوقف عند محطة معينة، ولا يراعي أحداً، ولا يجامل أحداً، هكذا تمضي بنا السنوات وتطحننا الأيام وتعركنا السنوات عرك الرحى بثفالها ونحن مع ذلك في غفلتنا وسهونا وشرودنا. يجب على المسلم أن يحاسب نفسه ماذا قدَّم في ذلك العام وماذا سيفعل في عامه الجديد، ثم يأخذ العبرة من سرعة مرور الأيام وانتهائها فهذه فريضة الحج تأتي وهو يشعر أنه ليس بينه وبين الحج في السنة التي

قبلها إلاَّ أيام معدودة على حين أنها مرت به سنة كاملة، ويعلم أن لكل بداية نهاية، فاليوم يبدأ وينتهي، والليل كذلك، والعام كذلك والهلال كذلك، يبدو صغيراً ثم يبدأ يكبر ثم يعود كما كان وكذلك الإنسان يكون طفلاً ثم يشب ثم يكبر ثم يرد إلى أرذل العمر ثم كما بدأ ينتهي وهكذا مما يثيره وداع العام واستقبال عام آخر، وإن الاعتبار بمرور الأيام صفة لأولي الألباب قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

(١٤) تذكر مصارع الغابرين:

المؤمن صاحب العقل والتدبر يقف مع نفسه في يوم عرفة وقفة مساءلة ومحاسبة، وهو يرى هذه الآلاف تجتمع في هذا الصعيد الطاهر. يسأل نفسه هل هؤلاء هم الذين يقفون في هذا المكان كل سنة دائماً وأبداً منذ أن خلق الله آدم؟ أم أن الأمر غير ذلك، وأنه قد وقفت في هذا الموقف قبلنا أُمَمٌ وأُمَم لا تحصى ولا تُعد، كان فيهم الأمير والوزير، والغني والفقير، والعزيز والحقير، والقوي والضعيف، والرجال والنساء... أين هم؟ أين ذهبوا؟ ياسبحان الله الحي الدائم الذي لا يموت.

وسيأتي يوم يقف بعدنا أناس وتكون أنت سرت في ركاب أولئك الذين رحلوا، فلا دوام إلاَّ لله ولا بقاء إلا لله.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباءَ محمول

ولكن اسأل نفسك ماذا أعددت للقدوم على الله؟

ما حال من سكن الثرى ما حالُهُ   أمسى وقد رثَّت هناك حِبالُهُ
أمسى ولا روحُ الحياةِ تصيبُهُ   أبداً ولا لطف الحبيب ينالُهُ
أمسى وقد درست محاسن وجهه   وتفرقت في قبره أوصالُهُ

* * *

أفضواجميعاًإلى الديان وارتحلوا   لو أن فيها خلوداً خُلِّد الرسلُ
أين المناصب والأموال ماحملوا   شيئاً وأين القصور الشمُّ والفللُ
تلك الوجوه التي عاشت منعمةً   باتت عليها هوامُ الأرض تقتتلُ

* * *

أرى فتنة الدنيا هي الآية الكبرى   يضلُّ بهاالهادي فيلهوعن الأخرى
تظل المنايا واقفات بمرصدٍ   فمن فات يمناها تلقته باليسرى
نراها على غير اعتبارٍ بما نرى   كماالواو في عمرو تُخطُّ ولاتُقْرَا
يظن الذي خلف الجنازة أنه   أمينٌ ولن يجري على ذلك المجرى
ترى عينهُ حَفْرَ الضريح وقلبُهُ   هنالك مشغول بأن يبتني قصرا
لنا كلّ يوم خطبة من جنازةٍ   ولكنَّ في الآذان عن صوتهاوقْرا

(١٥) الحج مؤتمرٌ سنويٌ عالمي :

الحج عبادة من أروع العبادات؛ فهو يجمع الناس من شتى أقطار الدنيا وتقبل الوفود من أنحاء الأرض استجابة لذلك النداء الإبراهيمي الخالد ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

يجتمع المسلمون في ظاهرة إيمانية رائعة ليست لأحد من الناس غير المسلمين، ولذلك فإن الحج شظاة في حلوق أعداء الإسلام.

تقول دائرة المعارف البريطانية:

«يؤدي الحج كل سنة مليونان من الأفراد، وتؤدي هذه العبادة دور قوة توحيدية في الإسلام بأنها تجلب لها أتباعاً من مختلف الجنسيات ليجتمعوا معاً في احتفال ديني».

ويقول أحد النصارى عن مدى جدوى التبشير في البلاد الإسلامية: «سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحي مادام للإسلام هذه الدعائم: القرآن، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي».

فنسأل الله تعالى الذي جمع المسلمين في هذا المكان الطاهر بأشخاصهم وأجسادهم أن يجمع قلوبهم ويوحد كلمتهم وصفوفهم إنه سميع مجيب.

ونكتفي بما ذكر من دروس وأسرار وإلاَّ فأسرار الحج وعجائبه عظيمة وكثيرة.

السراج المنير

يكفيك عن كلّ مدحٍ مدحُ خالقه ... واقرأ بربِّك مبدا سورة القلم
شَهْمٌ تُشيدُ به الدُّنيا برمَّتها ... على المنائر من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
أحيا بك الله أرواحاً قد اندثرت ... في تُربة الوهم بين الكأس والصَّنمِ
نفضتَ عنها غبار الذُّلِّ فاتّقدتْ ... وأبدعتْ وَرَوَتْ ما قُلتَ لِلأَمَمِ
محابرٌ وسِجلّاتٌ وأنديةٌ ... وأَحْرفٌ وقوافٍ كُنّ في صَمَمِ
فَمنْ أبوبكر قبل الوحي؟ مَنْ عمرٌ؟ ... وَمَنْ عليٌّ؟ وَمَنْ عثمان ذو الرحمِ؟
مَنْ خالدٌ؟ مَنْ صلاحُ الدِّين قبلك؟ مَنْ ... مالكٌ؟ ومن النُّعْمَان في القممِ؟
مَن البخاريْ؟ومَنْ أهل الصحاح؟ ومَنْ ... سفيان؟ والشافعيُّ الشّهم ذو الحكمِ
مَن ابن حنبل فينا وابن تَيْميَةٍ؟ ... بَلِ الملايين أهل الفضل والشَّمَمِ
مِنْ نهرك العذب يا خير الورىٰ اغترفوا ... أنت الإمام لأهل الفضل كُلِّهمِ
بَيتٌ من الطين بالقرآن تعمره ... تبّاً لِقصرٍ منيف بات في نَغَمِ
طعامك التمر والخبز الشعير وما ... عيناك تعدو إلى اللذات والنعمِ
تبيت والجوع يلقىٰ فيك بغيته ... إن بات غيرُك عبد الشحْمِ والتُّخَمِ
لمّا أتتكَ «قم الليل» استجبت لها ... العين تغفو وأما القلب لم ينمِ
تُمسي تناجي الذي أَوْلاكَ نعمته ... حتىٰ تَغَلْغَلَتِ الأورامُ في القَدَمِ
أَزيزُ صدركَ في جوف الظلام سرىٰ ... ودمعُ عينيك مثل الهاطل العَمِمِ
الليل تسهره بالوحي تعمره ... وشيّبتك بهودٍ آية «استقمِ»
تسير وِفْقَ مراد الله في ثقةٍ ... ترعاك عينُ إلهٍ حافظٍ حكمِ

فَوّضتَ أمرك لِلدّيان مُصطبراً ... بصدق نفسٍ وعزمٍ غير مُنثلمِ
وَلّىٰ أبوك عن الدنيا ولم تَرَهُ ... وأنت مُرتهنٌ لازلتَ في الرّحِمِ
وماتتِ الأمُّ لَمّا أنْ أَنِسْتَ بها ... ولم تكن حين وَلّتْ بالغَ الحُلُمِ
ومات جَدُّك من بعد الولوع بِهِ ... فكنتَ مِنْ بعدهم في ذروة اليتمِ
فجاء عمُّكَ حصناً تَسْتكنُّ به ... فاختاره الموت والأعداء في الأجمِ
تُرمىٰ وتُؤذىٰ بأصناف العذاب فما ... رُوئيتَ في ثوبِ جَبّارٍ ومُنْتقمِ
حتى على كَتفَيكَ الطاهرين رَمَوا ... سَلا الجزور بِكفِّ المشرك القَزَمِ
أَمّا خديجةُ من أعطتكَ بَهْجتَها ... وألبسْتكَ رداء العطفِ والكرمِ
وَلّتْ إلىٰ جَنَّةِ الباري ورحمته ... فَأَسْلمتْكَ لِجُرحٍ غير مُلتئمِ
والقلب أُفْعمَ من حبٍّ لعائشةٍ ... ماأعظم الخطب فالعرض الشريف رُمِي
وَشُجَّ وجهك ثم الجيش في أحدٍ ... يعود ما بين مقتولٍ ومنهزمِ
لما رُزقتَ بإبراهيم وامتلأتْ ... به حياتُك بات الأمرُ كالعدمِ
ورُغْمَ تلك الرّزايا والخطوب وما ... رأيتَ من لوعةٍ كُبرىٰ ومن ألمِ
ما كُنتَ تحمل إلاَّ قلب مُحتسبٍ ... في عَزْمِ مُتَّقِدٍ في وَجهِ مُبتَسِمِ
بنيتَ بالصّبر مجداً لا يماثله ... مجدٌ وغيرك عن نهج الرشاد عَمِ
يا أمّةً غفلت عن نهجه وَمضتْ ... تَهيمُ من غير لا هدْي ولا عَلَمِ
تعيش في ظلمات التِّيهِ دَمّرها ... ضَعْفُ الأخوّةِ والإيمانِ والهممِ
يوماً مُشَرِّقةً يوماً مُغَرِّبةً ... تسعىٰ لنيل دواءٍ من ذوي سَقَمِ
لن تَهتدي أمَّةٌ في غير منهجه ... مَهْمَا ارتضت من بديع الرأي والنُّظُمِ

[من قصيدة للمؤلف في الثناء على السراج المنير والبشير النذير ﷺ]

لطائف من
حجة المصطفى ﷺ

لطائف وطرائف من حجة المصطفى ﷺ

(١) والله متم نوره :

هذه المعجزة الربانية وتلك القدرة الإلـهية. انظر كيف أعز الله جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ .

قارن بين موقفين متباينين وحالين مختلفين تماماً:

الموقف الأول: رجل وحيد ليس معه إلاَّ النفر اليسير، طريد، شريد، مهدد، يُرتكب معه صنوف من الأذى في نفسه، في أهله، في أتباعه، ولا حول له ولا قوة، ثم يأتي ما هو أشد من ذلك وأشق، إذ يضطر للخروج من بلده، وليس هنالك لوعة ولا ألم أشق على الإنسان وأمرُّ في فؤاده من اضطراره إلى مفارقة وطنه والهجرة عن أرضه وأحبته.

فيخرج ﷺ من مكة مكرهاً ويترك مراتع الصبا وملاعب الطفولة، فيودعها في ألم وحسرة قائلاً: «**والله إنك لأحب البقاع إلى نفسي. والله لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**».

ريح الحجاز بحقّ من أنشاكِ ... رُدّي السلام وحيِّ من حيّاكِ
هبِّي عسى وجدي يخفُّ وتنطفي ... نيران أشواقي ببرد هواكِ
ياريح لولا أن فيك بقيةً ... من طيب مكة متُّ قبل لقاكِ

الموقف الثاني: مع الرجل نفسه وبعد سنوات قليلة لا تكاد تذكر ولا تمثل شيئاً في عمر الزمن يعود الرجل نفسه إلى هذا البلد الحرام، قوياً عزيزاً مُكَبِّراً، مهللاً عالي الهامة مرفوع الرأس يعود ليحج إلى هذا البيت الذي كان يطوف به خفية أو في جو من الرعب والحذر، يعود إلى هذا البيت الذي منع عنه مراراً. ولقد كان يعرض نفسه على القبائل في الحج مراراً وتكراراً، ويقول: من يؤويني حتى أبلغ دين الله؟ فإن قريشاً منعوني من ذلك. فلا يجد من يؤويه. بعد ذلك يعود بماذا وبمن؟ بمائة رجل، بمائتين، بألف... لا والله بل بما يقارب مائة وعشرين ألفاً من المؤمنين، كلهم يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، كل منهم يتمنى أن يقدم رقبته رخيصة في سبيل الذَّب عن هذا الدين وفداءً لهذا النبي الأمين ﷺ.

أليست هذه عجيبة من العجائب ولطيفة من اللطائف جديرة بأن يتأملها المؤمنون والدعاة إلى الله على وجه الخصوص.

(٢) حسن الخاتمة:

بينا رسول الله ﷺ واقف بعرفة يدعو ربه ويتضرع إليه وينطرح بين يديه ويتلذذ بمناجاته بينا هو كذلك إذا بأصوات تتردد هنا وهناك، وإذا بالناس يزدحمون حول رجل من الحجاج.

فيسأل القائد الأعظم ﷺ، الذي كان يعيش هموم الأمة عن الخبر، فيقال له: رجل فقير وَقَصَتْهُ الدابّةُ فمات. فهل شمخ بأنفه؟

وهل أعرض عنه وقال: رجل فقير ما لنا وله؟ بل بادر ﷺ إليه فأمرهم أن يغسلوه ولا يكفنوه، إلاَّ في ثوبيه (ثوبي الإحرام). قال: «**اغسلوه بماءٍ وسدر، وكفّنوه في ثوبيه ولا تخمروا رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيا**» [رواه مسلم]

(٣) دعاءٌ وثناء:

كان من أكثر دعائه ﷺ يوم عرفة قوله: «**لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**».

[رواه الترمذي وحسَّنه الألباني]

قيل لسفيان بن عيينة: لماذا كان الدعاء يوم عرفة لا إله إلاَّ الله... وهي ثناء وليست بدعاء؟ فقال للسائل: أما سمعت أمية بن أبي الصلت يمدح رجلاً بقوله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحباء
خليل لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

هذا للمخلوق فكيف بالخالق؟!!

(٤) إبلٌ تعشق الموت:

حينما حج ﷺ ساق معه مائة من الإبل هديه ﷺ، فأخذ الحربة لينحرها فيا للعجب ويا للروعة إذ أقبلت الإبل تتسابق إليه أيتها ينحر قبل. هكذا تتسابق النوق وكل واحدة منها تقدم رقبتها للنبي ﷺ لتظفر بطعنة من يده الشريفة لقد أدركت أن الموت له طعم من

كفه ﷺ. ينحر منها ثلاثاً وستين ثم يتوقف ولم يكمل المائة ويعطي الحربة لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ليكمل المائة.

قال العلماء: نحر من النوق بعدد سني عمره، لأنه عاش ثلاثاً وستين سنة.

سبحان الله إبلٌ تُقَدِّم رقابها لينحرها رسول الله ﷺ، على حين أن هنالك فئام من الناس وأعداد ممن ينتسبون إلى هذا الدين يدعوهم رسول الله ﷺ لا ليقطع رقابهم بل ليرفعها ويعلي قدرها بهذا المنهج الذي يحمله فيأبون إلاَّ أن يدسوا رؤوسهم في التراب، وأن يلووا أعناقهم عن سنته وهديه ﷺ.

أكرم بَخَلْق نبي زانه خُلُق	بالحق مشتملٍ بالبشر مُتَّسِم
كالزهرفي ترفٍ والبدرفي شرفٍ	والبحر في كرم والدهر في هِمَمِ
جاءت لدعوته الأشجار ساجدةً	تمشي إليه على ساقٍ بلا قدمِ
ياربِّ أزكى صلاةٍ منك دائمة	على النبي بمنهَلٍّ ومنسجمِ
ما رنّحت عذبات البان ريح صبا	وأطربت نغمات الآي من أُمم

(٥) مع الحلاق:

لما أراد ﷺ أن يحلق رأسه قال لمعْمَر بن عبدالله: «**يا معمر ألديك موسى**»؟

قال: نعم يارسول الله.

قال: «**سم الله واحلق رأسي**»، فأعطاه ميمنة رأسه الشريف، فأخذ يحلق رأسه وهو يبتسم ويقول لمعمر: «**أما رأيت رسول الله**

ﷺ **رأسه بين يديك والموسىٰ في يديك**»[1] قال معمر: يارسول الله، والله إنها من نعم الله عليَّ أن أحلق رأسك. فلما انتهى النصف الأول قال لأصحابه: «**اقتسموه بينكم**» فكادوا يقتتلون على شعره، كلٌّ منهم يريد أن يحصل ولو على شعرة واحدة.

وحق لهم ذلك الاقتتال على شعره ﷺ إنه شعر من رأس سيد الأولين والآخرين، إنها شعرات من الرأس الذي ملأ الدنيا نوراً وتوحيداً وعدلاً، إنها شعرات من الرأس الذي أنقذهم من الضلالة وأخرجهم من الجهالة، إنها شعرات من الرأس الذي ما تدنس بمعصية، ولا تلطخ بخطيئة، وما امتلأ بغير جلال الله وتوحيد الله وهداية الله.

ليس عندنا في الإسلام كهنوت ولا عبادة لغير الله ولا اعتقاد في غيره تعالى، ولكنه الحب الصادق لذلك النبي الكريم ﷺ.

ثم قال لمعمر: «**احلق النصف الآخر**» فحلق النصف الآخر، فقال ﷺ: أين أبوطلحة الأنصاري؟ فأتى أبوطلحة فقال له النبي ﷺ؛ «**خذ هذا الشعر كله**» فبكى أبوطلحة من الفرح.[2]

طفح السرور عليَّ حتى أنني   من عظم ما قد سرني أبكاني

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٠٠).

(٢) رواه مسلم.

أعراس الحداد[١]

هنا رَكايا الصفو سالت ندى ... واسترسلت في البيد ماء وزادْ!

هنا لِتاريخ الندى مولدٌ ... هنا لأعراس الجلال امتدادْ

هذا اللظى من قدح ضبّاحه ... هذا الشجى الواري بقايا اتّقادْ

هذي القلاع الجُرْد في حجرها ... تراقصت خيل الهدى لِلجهادْ

من عمقها قام المدى مُنشِدا ... وأرهف السمع المدى. .واستعاد

واخضرَّتِ الصحراء، وانثال من ... كثبانها الصفراء وجهُ الجواد

وَهزَّ نبضُ الماء جلمودها ... فأخصب الصخر، وجاد الجماد

هـٰذي القلاع السود مِن زَهْوِهَا ... أفاقَ تاريخٌ. . وأغفى رقاد

ما بالها سوداء، والوحي في ... أكنافها يَبْيضُّ منه السوادْ. .؟

وعاشقوها كالصباح المضيء ... من عاكفٍ مات اشتياقاً. . وباد

ماهذه الحُلْكَةُ. . ما سِرُّها ... كَمقلةٍ يطوي بهاها السُّهاد. .؟

هل أنضجتها الشمس شوقاً لها ... أم افترت فيها الخطوب الشداد؟

تساؤلٌ. . يعتادني قاتلٌ. . ... والشعر أحلى ما لديه العناد!

يا من يموج الحرف في أُفْقِهِ ... ما كلُّ من يسعى ينال المراد!

نظرتَ معصوباً بلا نظرةٍ ... بمقلةٍ حيرى. .ونصف اعتقاد. .

---

(١) مقطع من قصيدة الدكتور صالح بن سعيد الزهراني.

وخافقٍ يرتجّ في خفقه.. كأنه سوقٌ بألفي مزاد
أخرجتمُ الهادي، ومن يومه لَبِسْتُ للتاريخ ثوب الحداد

من آيات الحج

وأحـــاديثه

آيات الحج

يجدر بنا ونحن نتحدث عن رحلة الحج المباركة بأحكامها وأخبارها وأشعارها؛ أن نقف وقفة مباركة مع الكلام المبارك، ومع المصدر الأساس لكل خير وهدىً وطاعة لله تعالى ألا وهو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فالخير كلّه هنالك والروعة كلها هنالك، فهما النور والهداية والبركة والصلاح.

وإليك الآيات المباركات التي تتحدث عن الحج مع بيان يسير لمعناها الإجمالي(١) لتتمَّ روعة هذا الكتاب ورونقه، ومن أراد مزيداً من البيان والإيضاح فعليه بكتب التفاسير.

الحج تلبية للنداء الإبراهيمي

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا

(١) من كتاب أيسر التفاسير للشيخ أبوبكر الجزائري.

مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

[سورة الحج، الآيات: ٢٦ـ٢٩]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اذكر يا رسولنا لقومك المنتسبين إلى إبراهيم باطلاً وزوراً، حيث كان موحداً وهم مشركون، اذكر لهم كيف بوأه ربُّه مكان البيت لِيَبْنِيه ويرفع بناءه وكيف عهد الله إليه، ووصاه بأن يطهره من الأقذار الحسية كالنجاسات من دماء وأوساخ، والمعنوية كالشرك والمعاصي وسائر الذنوب؛ وذلك من أجل الطائفين به والقائمين في الصلاة والراكعين والساجدين فيه إذ الرُّكع جمع راكع والسجّد جمع ساجد، حتى لا يتأذوا بأي أذىً معنوي أو حسيّ وهم حول بيت ربهم وفي بلده وحرمه، ليذكر قومك هذا وهم قد نصبوا حول البيت التماثيل والأصنام، ويحاربون كل من يقول لا إله إلاَّ الله وقد صدوك وأصحابك عن المسجد الحرام ومنعوك من الطواف بالبيت العتيق، فأين يُذْهب بعقولهم عندما يدعون أنهم على دين إبراهيم وإسماعيل. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ

مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي وعهدنا إليه آمرين إياه أن يؤذن في الناس بأن ينادي معلناً معلماً: أيها الناس إن ربكم قد بنى لكم بيتاً فحجوه. ففعل ذلك فأسمع الله صوته من شاء من عباده ممن كتب لهم أزلاً أن يحُجو وسهل طريقهم وحجوا فعلاً ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي عليك النداء وعلينا البلاغ، فنادِ ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ من النوق المهازيل ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي طريق بعيد في أغوار الأرض وأبعادها؛ كالأندلس غرباً وأندونيسيا شرقاً. وقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي يأتوك ليشهدوا منافع لهم دينية؛ كمغفرة ذنوبهم واستجابة دعائهم والفوز برضا ربهم، وتَعلُّمِ دينهم من علمائهم، ودنيويّة كربح تجارة ببيع وشراء وعرض سلع وأنواع صناعات. وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ شاكرين لله تعالى إنعامه عليهم وإفضاله وذلك في أيام الحج كلها من العشر الأُوَل من ذي الحجة إلى نهاية أيام التشريق بالصلاة والذكر والدعاء، كما يذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند نحر الإبل وذبح البقر والغنم بأن يقول الناحر أو الذابح بسم الله والله أكبر. وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي من بهيمة الأنعام التي نحرتموها أو

ذبحتموها تقرباً إلينا كهدي التمتع أو التطوع. ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ وهو من اشتد به الفقر. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ بإزالة الشَّعث والوسخ الذي لازمهم طيلة مدة الإحرام. وقوله: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ أن من كان منهم قد نذر هدياً بذبحه في الحرم فليوف بذلك إذ هذا أوان الوفاء بما نذر أن ينحره أو يذبحه بالحرم. وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي وليطوفوا طواف الإفاضة وهو ركن الحج ولا يصح إلا بعد الوقوف بعرفة ورمي جمرة العقبة صباح العيد ـ عيد الأضحى ـ.

وجوب الحج مع الاستطاعة

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

[سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧]

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ فإنه متضمن الرد على اليهود الذين قالوا: إن بيت المقدس هي أول قبلة شرع للناس استقباله فلِمَ يعدل محمد وأصحابه عنها إلى استقبال الكعبة وهي متأخرة الوجود؟ فأخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس هو الكعبة لا بيت المقدس، وأنه جعله مباركاً يدوم بدوام الدنيا والبركة لا تفارقه فكل من يلتمسها بزيارته وحجه والطواف به يجدها ويحظى بها، كما جعله هدى للعالمين فالمؤمنون يأتون حُجَّاجاً وعماراً فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية، والمصلون في مشارق الأرض ومغاربها يستقبلونه في صلاتهم، وفي ذلك من الهداية للحصول على الثواب وذكر الله والتقرب إليه أكبر هداية. وقوله تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ يريد: في

المسجد الحرام دلائل واضحات منها مقام إبراهيم وهو الحجر الذي كان يقوم عليه أثناء بناء البيت حيث بقي أثر قدميه عليه مع أنه صخرة من الصخور، ومنها زمزم والحِجْر والصفا والمروة وسائر المشاعر كلها آيات، ومنها الأمن التام لمن دخله فلا يخاف غير الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ ثم هذا الأمن له والعرب يعيشون في جاهلية جهلاء وفوضى لا حد لها، ولكن الله جعل في قلوبهم حرمة الحرم وقدسيته ووجوب أمن كل من يدخله ليحجه أو يعتمره، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾، لمَّا ذكر تعالى البيت الحرام وما فيه من بركات وهدايات وآيات ألزم عباده المؤمنين به وبرسوله بحجه ليحصل لهم الخير والبركة والهداية، ففرضه بصيغة ولله على الناس وهي أبلغ صيغ الإيجاب، واستثنى العاجزين عن حجه واعتماره بسبب مرض أو خوف أو قلة نفقة للركوب والإنفاق على النفس والأهل أيام السفر. وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ فإنه خبر منه تعالى بأن من كفر بالله ورسوله وحج بيته بعد ما ذكر من الآيات والدلائل الواضحات فإنه لا يضر إلا نفسه أما الله تعالى فلا يضره شيء وكيف وهو القاهر فوق عباده والغني عنهم أجمعين.

صفة الحج والعمرة

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٢٠٢ ۞وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة]

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يتموا الحج والعمرة له سبحانه وتعالى فيأتوا بها على الوجه المطلوب، وأن يريدوا بهما الله تعالى ويخبرهم أنهم إذا أُحصروا فلم يتمكنوا من إتمامهما، فالواجب عليهم أن يذبحوا أو ينحروا ما تيسّر لهم(١)، فإذا ذبحوا أو نحروا

---

(١) الواجب على المحصر أن يذبح هديه في الحرم وإن عجز ذبح في مكان الإحصار، وإن عجزه ذبحه حيث أمكنه، وإن لم يجده لفقرٍ صام عشرة أيام بدله والواجب أن لا يتحلل إلاَّ بعد نحر الهدي إن كان ذلك في مقدوره. هذا أوسط المذاهب في هذه المسألة الشائكة الكثيرة الآراء. (راجع أيسر التفاسير ج١ص١٧٨).

حلوا من إحرامهم، وذلك بحلق شعر رؤوسهم أو تقصيره[١]، كما أعلمهم أن من كان منهم مريضاً أو به أذىً من رأسه واضطر إلى حلق شعر رأسه أو لبس ثوب، أو تغطية رأس؛ فالواجب بعد ذلك أن يفعل فدية: وهي واحد من ثلاثة على التخيير: صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين حفنتان من طعام[٢]، أو ذبح شاة. كما أعلمهم أن من تمتع بالعمرة إلى الحج ولم يكن من سكان الحرم أن عليه ما استيسر من الهدي؛ شاة أو بقرة أو بعير، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في الحج من أول شهر الحجة إلى يوم التاسع منه وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده. وأمرهم بتقواه عز وجل وهي امتثال أوامره والأخذ بتشريعه وحذرهم من إهمال أمره والاستخفاف بشرعه فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

ثم أخبر تعالى أن الحج له أشهر معلومة وهي شوال وذوالقعدة وعشر ليال من ذي الحجة فلا يُحْرِم بالحج إلا فيها. وأن من أحرم بالحج يجب عليه أن يتجنب الرفث والفسق والجدال حتى لا يفسد حجه أو ينقص أجره، وانتدب الحاج إلى فعل الخير من صدقة وغيرها فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ ولازِمُه أنه يثيب عليه

---

(١) إذا خاف الحاج أن يحول بينه وبين الحج حائلٌ من مرض أو خوفٍ أو نحو ذلك فإنه يشترط ويقول: «..فإن حبسني حابس فمحلّي حيث حبستني» فإذا قال ذلك ثم عرَضَ له عارض فإنه يُحِلُّ ولا شيء عليه.

(٢) ويجزىء اليوم كيلو أرز أو برّ لكل مسكين، ولا يجوز إلقاء ذلك لحَمَام الحرم كما يفعل الجهّال.

ويجزي به. وأمر الحجاج أن يتزودوا لسفرهم في الحج بطعام وشراب يكفون به وجوههم عن السؤال فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ وأرشد إلى خير الزاد وهو التقوى، ومن التقوى عدم سؤال الناس أموالهم والعبد غير محتاج، وأمرهم بتقواه عز وجل؛ أي بالخوف منه حتى لا يعصوه في أمره ونهيه فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والله أحق أن يتقى لأنه الواحد القهار، ثم أباح لهم الإتجار أثناء وجودهم في مكة ومنىٰ فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد رزقاً حلالاً بطريق التجارة المباحة ثم أمرهم بذكر الله تعالى في مزدلفة بصلاة المغرب والعشاء والصبح فيها وذلك بعد إفاضتهم من عرفة بعد غروب الشمس فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ثم ذكَّرهم بنعمة هدايته لهم بعد الضلال الذي كانوا فيه وانتدبهم إلى شكره وذلك بالإكثار من ذكره فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾. ثم أمرهم بالمساواة في الوقوف بعرفة والإفاضة منها فليقفوا كلهم بعرفات، وليفيضوا جميعاً منها فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، وذلك أن الحُمس (من هو أشد تحمساً وحماسة لحماية الحرم وهم قريش) كانوا يفيضون من أدنى عرفات حتى ينجوا من الزحمة ويسلموا من الحطمة. وأخيراً أمرهم باستغفار الله أي طلب المغفرة منه ووعدهم بالمغفرة بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

السعي بين الصفا والمروة

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة البقرة؛ الآية: ١٥٨]

يخبر تعالى مُقَرِّراً فرضية السعي بين الصفا والمروة، ودافعاً ما توهمه بعض المؤمنين من وجود إثم في السعي بينهما نظراً إلى أنه كان في الجاهلية على الصفا صنم يقال له إسافٌ، وآخر على المروة يقال له نائلة يتمسح بهما من يسعى بين الصفا والمروة، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ يعني السعي بينهما ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أي عبادةً من عباداته إذ تعبد بالسعي بينهما نبيه إبراهيم وولده إسماعيل والمسلمون من ذريتهما. ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ ﴾ لأداء فريضة الحج أو ﴿ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ لأداء واجب العمرة فليسع بينهما أداءً لركن الحج والعمرة، ولا إثم عليه في كون المشركين كانوا يسعون بينهما لأجل الصنمين: إساف ونائلة. ثم أخبر تعالى واعداً عباده المؤمنين أن من يتطوع منهم بفعل خير من الخيرات يجزه به ويثبه عليه، لأنه تعالى يشكر لعباده المؤمنين أعمالهم الصالحة ويثيبهم عليها لعلمه بتلك الأعمال ونيات أصحابها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

البراءة من المشركين

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة التوبة؛ الآية: ٣]

قال تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أي محمد ﷺ والأذان الإعلان والإعلام، ﴿ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وهم المشركون ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ أي يوم عيد الأضحى حيث تفرَّغ الحجاج للإقامة بمنى للراحة والاستجمام قبل العودة إلى ديارهم، وسُمِّي يوم الحج الأكبر لأنه حج حضره الرسول ﷺ وحضرت فيه أُمَّة الإسلام التي وجدت في تلك السنة فحجّ أكبر عدد في ذلك العام. وصورة الإعلان عن تلك البراءة هي قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ أي ورسوله كذلك بريء من المشركين وعليه ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أيها المشركون إلى الله تعالى بتوحيده والإيمان برسوله وطاعته وطاعة رسوله ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ من الإصرار على الشرك والكفر والعصيان، ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي أعرضتم عن الإيمان والطاعة ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ ﴾ بحال من الأحوال فلن تفوتوه ولن

تهربوا من سلطانه، فإنه الله تعالى لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب ثم قال تعالى لرسوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ أي أخبرهم به فإنه واقع بهم لا محالة إلاَّ أن يتوبوا.

أحاديث الحج

وإليك بعض الأحاديث النبوية الصحيحة التي تُجلّي فضل الحج وأهميته وفرضيته:

١ ـ عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجّوا**» فقال رجلٌ: أكُل عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**». [رواه مسلم]

٢ ـ وعنه، قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حجٌّ مبرور**». [متفق عليه]

٣ ـ وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ؛ «**من حج لله فلم يرفُثْ ولم يَفسُق رجع كيوم ولدته أمُّه**». [متفق عليه]

٤ ـ وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارةٌ لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنة**». [متفق عليه]

٥ ـ وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عمرة في**

رمضان تعدل حجة». [متفق عليه]

٦ ـ وعنه، قال: إن النبي ﷺ لقى ركباً بالروحاء، فقال؛ **«مَنِ القومُ»**؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟ قال: **«رسول الله»** فرفعَتْ إليه امرأةٌ صبياً فقالت: ألهذا حجٌّ؟ قال: **«نعم، ولك أجرٌ»**. [رواه مسلم]

٧ ـ وعنه، قال: أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إن أختي نذرَت أن تحج، وإنها ماتت. فقال النبي ﷺ: **«لو كان عليها دين أكنت قاضيهُ»**؟ قال: نعم. قال: **«فاقض دين الله؛ فهو أحق بالقضاء»**. [متفق عليه]

٨ ـ وعن عائشة، قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد. فقال: **«جهادكن الحج»**. [متفق عليه]

٩ ـ وعن أنس، قال: **«اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر كلُّهنّ في ذي القعدة، إلاَّ التي كانت مع حجته: عمرةً من الحديبية في ذي القعدة، وعمرةً من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرةً من الجعرانة، حيث قسَمَ غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته»**. [متفق عليه]

١٠ ـ وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: **«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلاَّ الجنة»**. [رواه الترمذي والنسائي]

١١ ـ وعن ابن عمر، قال: سأل رجل رسول الله فقال: ما الحاج؟ فقال: «**الشَّعثُ التَّفلُ**». فقام آخر، فقال: يارسول الله! أي الحج أفضل؟ قال: «**العجُّ والثَّجُّ**». فقام آخر، فقال: يارسول الله! ما السَّبيل؟ قال: «**زادٌ وراحلةٌ**»[١].

[رواه في شرح السنة ورواه الترمذي وابن ماجة]

١٢ ـ وعن ابن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شُبْرمةَ. قال: «**من شُبرمةُ**»؟ قال: أخٌ لي أو قريب لي. قال: «**أحججت عن نفسك**»؟ قال: لا. قال: «**حج عن نفسك ثم حج عن شُبرمةَ**» [رواه الشافعي، وأبوداود، وابن ماجة]

١٣ ـ وعن عائشة، قالت: قلت: يارسول الله! على النساء جهادٌ؟ قال: «**نعم، عليهن جهادٌ لا قتال فيه: الحج والعمرة**».

[رواه ابن ماجة]

١٤ ـ وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**الحاج والعُمّارُ وفْدُ الله؛ إن دعوهُ أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم**».

[رواه ابن ماجة]

---

(١) الشعث: أي المغبرّ الرأس من عدم الغسل، المفرق الشعر من عدم المشط؛ أي تارك الزينة. والتفل: تارك الطيب. والعج: رفع الصوت بالتلبية. والثج: سيلان دماء الهدي.

هنا تسكب العبرات

يتقدم ﷺ في إحرامه الطاهر وقلبه الخاشع، يتقدم في موكبه الباهر وخلقه المتواضع، يتقدم إلى حيث ذكريات جدِّه ـ عليه السلام ـ أبو الحنيفية ومرسي دعائم هذا البيت العظيم، جنبات الحرم تدوي بالتهليل والتكبير، كلمات التلبية وعبارات التوحيد تملأ المكان وتطرب الزمان، وتتصاعد في إخلاصها المتناهي إلى الواحد الديان.

هنا يقترب ﷺ من الحجر الأسود ليقبله قبلة ترتسم على جبينه درةً مضيئة على مر السنين لم يتمالك نفسه صاحب النفس الخاشعة والعين الدامعة، فينثر دموعه مدراراً وتتحدر على خده المشرق كاللآلي المضيئة. هنا كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يتابع الموقف بلهفة وتعجب!! يارسول الله لماذا تبكي؟ يكفكف دموعه الطاهرة ﷺ ويجيب صاحبه الوفي بعبارات هادئة خاشعة باكية قائلاً له: «**هنا تسكب العبرات يا عمر**».

الحجُـــر الأســـود قَبَّلتُـــهُ بِشَفَتَـــيْ قلبـــي وكُلِّـــي وَلَـــهْ
لا لاعتقـــادي أنَّـــه نـــافـــعٌ بَـــلْ لهيـــامـــي بـــالـــذي قَبَّلَـــهْ

التقوى في الحج

أخي الكريم: أدعوك أن تتأمل معي آيات الحج وكيف ارتبطت هذه العبادة بالتقوى. وكيف أشارت إلى أن الدرس الأول الذي يأخذه المؤمنون من الحج هو التقوى وأن هذه العبادة هي موسم من المواسم التي يتزود فيها المرء بالتقوى.

في أول آية من آيات الحج يَرِدُ ذكر التقوى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾. وتختم آيات الحج بذكر التقوى: ﴿... وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ وأرجو أن لا يفوتك أن تتأمل مسألة أخرى وهي أن التقوى يعقبها في أحيان كثيرة ذكر لليوم الآخر أو تخويف من جهنم، وتحذير من العقاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ وهنا في آيات الحج ترى الآية الأولى تختم بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾. والآية الأخيرة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الذي ينجي من عذاب الله ومن أهوال القيامة هو تقوى الله تعالى.

وربط مواسم الطاعة بالتقوى ليس خاصاً بالحج، فلو نظرت إلى

الصيام مثلاً تجد الصورة نفسها تتكرر هنالك، ففي أول آية من آيات الصيام في سورة البقرة تجد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾. وفي آخر مقطع من الآيات نفسها ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

ولا تعجب إذا تأملت القرآن فوجدت أن ذكر التقوى، والمتقين، يربو على المائتي مرّة بكثير، وقد خاطب الله عباده المؤمنين آمراً لهم بالتقوى وعلى رأسهم نبي الله محمد ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ... ﴾ وخاطب تعالى المؤمنين وأمرهم بالتقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ ﴾.

وخاطب تعالى عموم الناس فدعاهم إلى التقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا... ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ ﴾.

والتقوى هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾.

وأخيراً فهل من مستجيب لهذا النداء الرباني الخالد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

يا أمير المؤمنين اتق الله

دخل عطاء بن أبي رباح على عبدالملك بن مروان وهو جالسٌ على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: ياأبامحمد، حاجتك؟ قال: ياأمير المؤمنين اتق الله في حرم الله عز وجل، وحرم رسوله ﷺ، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك ولا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل. ثم نهض، فقبض عليه عبدالملك، فقال: ياأبامحمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتُك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج. فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرفُ، هذا وأبيك السؤددُ.

وعلى التقيِّ إذا تراسخ في التقى
تاجان: تاجُ سَكِينةٍ وجمالِ
وإذا تناسبت الرجال فما أرى
نسباً يكون كصالح الأعمال

أيامٌ ثمانية في حياة مكة

١ ـ **هنا** انشق القمر ليكون آية على صدق رسول الهدىٰ ﷺ فرأى العالم البدر فلقتين، وهذا القمر المنير قسمين ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ .

٢ ـ **هنا** بُني البيت وحُمِلت أحجاره على أكتاف عبدين صالحين وعاملين صادقين: إبراهيم وإسماعيل، والهتاف: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ .

٣ ـ **هنا** قُصِم عنفوان عدوان أبرهة ودُحِرَ جيشُه ونُكِّست أعلامُه وخسأ فيلُه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ .

٤ ـ **هنا** القصة الكبرى والحديث الأكبر والخطب الجلل؛ نزول الوحي على الرسول ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ .

٥ ـ **هنا** كانت الرحلة العظيمة والسفر المبارك لمحمد ﷺ إلى السماء، حيث التقىٰ العالم العلوي بالسفلي والبشر بالملائكة.

٦ ـ **هنا** ماء زمزم طعام طُعم وشفاء سقم. الماء الذي جرى باسم الله تعالى.

٧ ـ **هنا** ولد الهدىٰ فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

حيث ولد أبَرُّ مولودٍ بأمته وأَبرك وافدٍ على قومه وأسعد رائدٍ

على عشيرته ﷺ.

٨ ـ **هنا** كان الفتح العظيم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ حيث حطمت الأصنام، وأزهق الباطل، وصعد بلال على ظهر البيت يشدو بالأذان.

الفضيل بن عياض ينصح الرشيد

هارون الرشيد: هذا الخليفة العادل والإمام الصالح الذي أُفتريَ عليه افتراءات كثيرة وهو منها براء. هارون الرشيد الخليفة العابد العادل الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، إليك هذه القصة الجميلة المؤثرة والموعظة البالغة التي تهز الوجدان وتنفذ إلى أعماق القلوب والتي وُعِظَ بها هارون الرشيد من العالم العابد الواعظ الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ.

يقول الفضل بن الربيع ـ حاجب الرشيد ـ سافر أمير المؤمنين للحج فأتاني فخرجت إليه مسرعاً.. فقلت له: هاهنا الفضيل بن عياض هل لك في زيارته؟ فقال الرشيد: امض بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، قال: اقرع الباب، فقرعته، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أوما عليك طاعته؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة وأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه. فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله! فقلت في نفسي: ليكلمنَّه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله. فقال: إن عمر بن

عبدالعزيز لما وُلي الخلافة دعا سالم بن عبدالله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حَيْوَةَ فقال لهم: إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ، فعد الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبدالله: إن أردتَّ النجاة من عذاب الله عز وجل فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله غداً ليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً، فوقّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحبُّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت.

وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف من يوم تزلّ فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه؛ فقلت له: أرفق بأمير المؤمنين فقال: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا! ثم أفاق. فقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لِعُمر بن عبدالعزيز شُكِيَ إليه، فكتب إليه عمر: ياأخي، أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنْصَرف بك من عند الله ـ عز وجل ـ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء.

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما

أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: زدني رحمك الله، فقال: ياأمير المؤمنين، إن العباس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله أمّرني على إمارة، فقال له: «**إن الإمارة حسرةٌ وندامة يومَ القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل**».

فبكى هارون بكاءً شديداً، فقال له: زدني رحمك الله.

فقال له: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌ لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشاً لم يَرُحْ ريح الجنة**». فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دينٌ لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حُجّتي.

قال: إنما أعني من دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

فقال له: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك. فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا! سلّمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب قال هارون: إذا دللتني على رجل فدُلّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

معلمة الأجـيال
ومربية الأبطـال

معلمة الأجيال! ومربية الأبطال

أيتها الأخت المؤمنة يا من أتيت طاعة لله، وحباً لله، وامتثالاً لأمر الله وطمعاً في مرضاة الله وشوقاً إلى حرم الله، يا من أتيت في زيك الإيماني الطاهر، وامتلأ قلبك بمهابة الملك العلي القاهر، مرحباً بك في رحلتك الإيمانية، وسياحتك الروحانية، وطموحاتك النورانية. مرحباً بك في مظهرك المحتشم المؤكد لإيمانك، وفي عفتك النقية نقاء ملابس إحرامك.

أتيت أختي المؤمنة لتقفي بجوار إخوانك وأخواتك من المؤمنين والمؤمنات، ولتشهدي الموقف مع الموحدين الطائعين، ولتطوفي مع الطائفين، في جو من الحشمة والوقار، ونقاء النية وروعة المسار. جئتِ لتقولي لإخوانك من الرجال المؤمنين إنني أقاسمكم الطاعة وأقاسمكم حمل راية هذا الدين؛ جئتِ لتقولي لهم أنتم من غيري كالطائر بلا جناح، وكالظلام بلا صباح، أنتم بدوني يا معشر الرجال كاليمين بلا شمال، وكالسماء بلا هلال. جئتِ لتثبتي أصالتك وسبقك في حمل راية الدعوة. فإن الدعوة الإسلامية نشأت في حجرك وترعرعت في أحضانك، جاء ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها من غار حراء وهو يرتعد من الخوف وترجف بوادره «**زملوني زملوني**» فاحتضنته خديجة بحنانها، وغمرته بعطفها،

وربطت على قلبه، وزرعت بوارق الأمل في نفسه بكلماتها الرائعة التي سجلها التاريخ، فأصبحت كلماتها درة مضيئة على جبين الدهر إلى قيام الساعة: «**كلاّ أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق**».

وهكذا وقفتْ معه جنباً إلى جنب وسَخَّرتْ إمكاناتها ومكانتها وأموالها في سبيل نشر الحق، ورفع لواء التوحيد حتى استحقت أن يأتي جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، فيقول له: «**اقرأ على خديجة السلام من ربها عز وجل ومنّي!! وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**». رضي الله عنها وأرضاها. ثم حملت الراية من بعدها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها والتي أخبر ﷺ أن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

ولقد رأيت من خلال تأملي في دراسة منزلة المرأة أمراً عجباً، وتجلت لي لفتة طريفة رائعة، تزيد في تعميق مكانة المرأة في الإسلام، وفي نفوس أتباعه، وهو أن الدعوة وانبلاج الحق ونور النبوة أول من كان في استقباله والترحيب به إلى الأرض وأول من تلقاه من رسوله امرأة؛ وهي خديجة ـ رضي الله عنها ـ ثم حينما كمل دين الله وتمت نعمته وأشرقت الرسالة بأنوارها على أرجاء الدنيا كان آخر من ودّع صاحبها وحاملها امرأةٌ؛ وهي عائشة

ـ رضي الله عنها ـ، فلقد لفظ أنفاسه الأخيرة ﷺ ورأسه على صدرها كما في صحيح مسلم[١].

وهكذا أختي المؤمنة رأيت فضل المرأة وإسهامها في سير الرسالة المحمدية وليس الأمر يخص نبينا ﷺ، بل تأريخك عريق وأثرك على دعوة التوحيد عميق وعميق، إنه قديم قدم الزمن، وممتد امتداد دعوة التوحيد، فهذا موسى ـ عليه السلام ـ جعل الله تعالى حمايته واحتضانه على يد أخواتك من النساء حتى بلّغ نور الله تعالى وأقام حجته، ابتداءً بأمه، ثم أخته، ثم آسية زوج فرعون التي ربته في داخل بيت فرعون.

وهكذا أيتها الأخت يتجلى تأريخك الوضّاء الذي رضيتْ عنه الأرض والسماء.

يا بنت عائشة التي حفظت لنا ... هدي الحبيب بحكمةٍ وتمامِ
وَلِطُهرها ونقائِها وعَفَافِها ... جاءت براءتها من العلاَّمِ
يا أخت فاطمة التي بِحيائها ... نالت من الديان خير وسامِ
صوني الأمانة في الحياة ليُرتجىٰ ... نصرٌ لأمتنا ونيل مرامِ
رَبِّي لنا جيلاً أبيّاً مؤمناً ... ليعيش يرفع راية الإِسلامِ

هل آن لك يا فتاة الإسلام ويا زهرة الأيام أن تعرفي دورك العظيم عبر التاريخ، وإسهامك الشامخ في رفع راية التوحيد

(١) مختصر صحيح مسلم حديث رقم (١٦٦٣) «... فلما كان يومي قبضه الله بين سَحْري ونحري».

والإسلام لله تعالى منذ أمنا حواء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟ هل آن لك أن تعرفي ذلك تماماً وتعقليه بعقلك وقلبك فتستردي ثقتك بنفسك واعتمادك على ربك فتواصلي في حمل هذه الراية المباركة وتستمري في عطائك الرائع ومواقفك المتميزة؟.

من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق عِلَّةُ ذلك الإخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها ... أعددتَّ شعباً طيب الأعراقِ
الأم روضٌ إنْ تعهَّده الحيا ... بالرِّي أورق أيَّما إيراقِ
الأم أستاذ الأساتذة الأُلىٰ ... شغلتْ مآثرهم مدى الآفاقِ

إتحاف المؤمنات بما لهن في الحج من ذكريات

يا أمة الرحمن، ويا ربيبة التقى والإيمان، ويا فيض الرحمة وينبوع الحنان، أرجو أن تسرحي بخيالك الخصيب، وفكرك اللبيب، لتتأملي روائع من تأريخك العجيب، في الحج تبدو ذكرياتك واضحة جلية، مضيئة بهية، برّاقة سنية، محترمة مرضية، رائعة نقية فواحة زكية. إذا حج المؤمنون تراءت أمام أعينهم تلك المواقف الرائعة للمرأة المسلمة فكم من موقف لها فيه ذكرى، وكم من مقام لها منه معنى.

هل السعي بين الصفا والمروة بعد فضل الله تعالى إلاَّ حسنة من حسنات أمّنا هاجر عليها السلام؟!!

وهل ماء زمزم إلاَّ بفيض من إيمان هاجر ودعاء هاجر ونداء هاجر، لتروي عطشها وعطش الغلام؟!!

يا من قصدت هذا البيت الحرام، لأداء ركن من أركان الإسلام، وأنت تطئين بقدمك المتوضئة ثرى مكة الطاهر وتتجولين في جنباتها، أما طاف بخيالك صورة مشرقة وأنت تتأملين شريط ذكريات الإسلام الخالدة، أما تذكرت أمّك هاجر المؤمنة الواثقة بربها، المطيعة لزوجها، هاجر التي جاء بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة

في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم منطلقاً، وتركهما، فتبعته هاجر فقالت: ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنسٌ ولا شيء، وأعادت عليه ذلك مراراً وهو لا يلتفت إليها، فقالت: ياإبراهيم آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فقالت هاجر كلمتها الرائعة الناصعة المدوّية: إذاً لا يُضيِّعنا. أرأيت أختي المؤمنة قوة الإيمان أرأيت قوة الثقة بالله والاعتصام به والتوكل عليه.

أما طاف بخيالك صورة مشرقة لأمك خديجة وهي تتابع في لهفة وشوق مسيرة الدعوة وثمرات الرسالة؟ أما تراءت أمام ناظريك لمحة ممتعة لأسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ أسماء ذات النطاقين التي كانت تقطع المسافات الطويلة في وهج الظهيرة وتحت لهيب الشمس المحرقة حاملة الزاد من بطن مكة إلى غار ثور حيث يختبيء رسول الله ﷺ وأبوها، والتي أرادت أن تربط الزاد لهما فلم تجد ما تربطه به، فشقّت نطاقها ـ ما يُشَدُّ به الوسط ـ نصفين لتربط الزاد بنصف وتنتطق بالنصف الآخر فسميت ذات النطاقين، تلك المرأة التي أسهمت في نصرة الحق وفي إتمام خطة الهجرة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

أما تذكرت وأنت في خيمة الحج أمك عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ حينما قدمت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهي

تروي بعض مواقف الحج وتخبر أنها كانت مع أخواتها من المؤمنات المُحْرِمات يكشفن عن وجوههن فإذا مرَّ بهن الركبان والرجال الأجانب أسدلن الأغطية على وجوههن. أما تذكَّرتِ ذلك، فسرت على نهجها وفعلت فعلها؛ لأنك لا ترضي لنفسك أن تأتي للحج وللبحث عن المغفرة فتكوني عوناً لإبليس على فتنة المؤمنين وإغواء المحرمين، وتظهري محاسنك ومفاتنك أمام المسلمين فتبوئي بالإثم والخسران العظيم، ويعود الناس بذنوب مغفورة، وأعمال مشكورة، وترجعي خاسرة آثمة مأزورة. معاذ الله! أنت لا ترضين هذا لنفسك أنت أبعد وأعقل من هذه التصرفات أنت إن شاء الله المتحجبة المحتشمة الحيية العفيفة.

وبعد هذا الاستطراد الموجز الذي جذبني إليه القلم؛ لما نرى من مناظر الألم، جَنبَكِ الله مواطن الندم.

تعالي أيتها الأخت لنستكمل حديثنا مع عائشة وكأني بها وهي تبكي وتنحدر الدموع الملتهبة على خدّها حزناً على فوات العمرة عليها؛ لأنها لم تؤدي العمرة بسبب الحيض الذي عاقها عن الطواف بالبيت، فيأبىٰ ﷺ إلا أن يجبر خاطرها ويُطيِّب قلبها، حتى ترجع من الحج وهي سالية مسرورة، فيأمر أخاها عبدالرحمن أن يذهب بها إلى التنعيم، فتهلّ من هنالك بعمرة وهذا من حرصها وحبها للطاعة، فقد شقَّ عليها أن يرجع الناس بحج وعمرة وترجع هي بحج فقط ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

وهكذا أيتها المؤمنات الطائعات تتراءى أمام الأعين هذه الذكريات الخالدات، ونكتفي بهذا القدر اليسير منها وأرجو الله تعالى بأن يكون في تذكرها وتأملها ما ينفعنا ويقوي إيماننا وَصِلَتنا بديننا ونبينا وتأريخنا.

الوحي يشيد بالمرأة

لن أطيل بذكر أخبار المرأة ومكانتها في غير الإسلام فليس موضع ذلك الكلام في هذه العجالة ولكن خلاصة القول أن المرأة لم تجد مكانها الطبيعي واحترامها اللائق إلاَّ في دين الإسلام. إن الذي يقرأ عن نظرة الديانات والمذاهب الأخرى للمرأة يجد أمراً عجباً.

المرأة في الحضارة الصينية والحضارة الرومانية واليونانية وعند الهنود، وعند فارس، وعند العرب في الجاهلية، وعند اليهود، وعند النصارى. كل هؤلاء باختصار كانوا ينظرون إلى المرأة نظرة احتقار وازدراء وانتقاص لإنسانيتها وأنها مصدر لكل شرٍّ وشؤم وخطيئة.

ولكن انظري إلى الصورة المشرقة والمنزلة العريقة للمرأة في دين الإسلام وحينما نقول الإسلام فلا يعني أن المقصود به هو بعثة محمد ﷺ فقط؛ بل الإسلام قديم قدم البشرية والدين عند الله هو الإسلام، مذ خلق الله آدم. وما حدث للمرأة عند اليهود والنصارى مثلاً وهم أهل كتاب فإن ذلك من دينهم المحرف، وليس من دين الإسلام الذي جاءت به الرسل؛ لأن الحفظ لم يكتب إلا لهذا القرآن وهذه السنة النبوية المطهرة فجميع الأنبياء على ملة واحدة

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

خبر المرأة في القرآن :

امرأة عمران وابنتها : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ فولدت مريم عليها السلام، فماذا كانت النتيجة لدعوات هذه المرأة المؤمنة؟

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ .

ويحدثنا القرآن عن مريم هذه ويجعل سورة كاملة تحمل اسمها تكريماً لها ويقص القرآن علينا من أمر مريم ما يدل على أن المرأة كالرجل في الإيمان بالله تعالى وتبعات ذلك الإيمان وأنه كما اصطفى الله تعالى من الرجال لمعاني الحق والبرّ اصطفى من النساء، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

وقد ضرب الله تعالى بمريم مثلاً للذين آمنوا من الرجال والنساء وفي هذا أعظم تكريم ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وكذلك يحدثنا القرآن عن أم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

ويحدثنا عن أخت موسى التي قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ويحدثنا القرآن عن امرأة فرعون المؤمنة وهي أيضاً ممن ضرب بها المثل للمؤمنين.

ويحدثنا القرآن عن المرأتين اللتين سقى موسى لهما وعن ذكائهما وحيائهما وهو ما يتجلى في تلك القصة الرائعة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾.

وفي عهد سليمان ـ عليه السلام ـ يحدثنا القرآن عن ملكة سبأ وذكائها وحنكتها وهي التي آمنت بعد ذلك وأسلمت ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وهكذا يحدثنا القرآن عن عدد من النساء المؤمنات، وتحتل المرأة مكاناً سامياً في كتاب الله تعالى، فلما أن بعث رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى عليه القرآن، جاء هذا القرآن برفع شأن المرأة وبين وجوب احترامها والقيام بحقوقها وأنزل تعالى في شأنها الكثير من الآيات المتلوة في المساجد والبيوت إلى يوم القيامة.

ففي القرآن الكريم سورتان يقال لهما سورتا النساء: إحداهما ست وسبعون ومائة آية وهي سورة النساء، والأخرى اثنتا عشرة آية

وهي سورة الطلاق، وفي سورة البقرة إحدى وعشرون آية متتابعة عن أمر المرأة وكذلك سورة النور والأحزاب والتحريم، أكثر آياتها في المرأة تأديباً وتعليماً وتبرئة وتنزيهاً وترغيباً وترهيباً، وما أكثر الآيات في بقية السور التي تتحدث عن المرأة والتي يتبين من خلالها علو شأن المرأة وفضلها ووجوب العناية بها، وقد سمع الله تعالى مجادلة المرأة في زوجها وكذلك أمر رسوله ﷺ أن يجعل لها حظًّا من دعائه واستغفاره كحظ الرجال ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في أغلب تكاليف الإيمان. ومن المجمع عليه والمعلوم من الإسلام بالضرورة أن على النساء ما على الرجال من أركان الإسلام، وكذلك ساوى الإسلام بينهما في جزاء الآخرة، وفي ثواب الأعمال، وقد أكد القرآن هذا المبدأ بهذه الآيات العظيمة التي تتجلى فيها روح المساواة والعدالة ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾.

وكذلك ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الموالاة والتناصر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

إلى غير ذلك من النصوص القرآنية التي تهتم بالمرأة وتتحدث عنها وكذلك الشأن بالنسبة للسنة النبوية المطهرة فالأحاديث الواردة في شأن المرأة عن الرسول ﷺ أكثر وأعظم من أن يحاط بها.

ولقد كان ﷺ يوصي دائماً بالمرأة خيراً، ويحث على الرفق بها واحترامها وإعطائها حقوقها، بل لقد كان في اللحظات الأخيرة من حياته يردد ويكرر «**استوصوا بالنساء خيراً، استوصوا بالنساء خيراً**» وفي مثل هذه الأيام وعلى صعيد عرفة يعلن ﷺ في خطبته العصماء على رؤوس الأشهاد يعلن حقوق المرأة ووجوب احترامها ويطلق تلك المبادىء الرائعة لتبقى درراً مضيئة على جبين الزمان.

«**واتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان لا يَمْلِكن لأنفسهن شيئاً، وإنَّ لهن عليكم حقاً ولكم عليهن حقاً. . .**» [رواه مسلم]

وقد جاءت السنة النبوية ببيان شئون المرأة وواجباتها (أماً وبنتاً وزوجة).

ومنها مثلاً:

- الأم: «**الزمها فإن الجنة تحت رجليها**» [رواه النسائي]

وسُئل النبي ﷺ عن أولى الناس ببر الرجل؟ فقال: «**أمك**»

[متفق عليه]

- الزوجة: «**إن لزوجك عليك حقًّا**» [متفق عليه].

«**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة. .**» [رواه مسلم]

«استوصوا بالنساء خيراً» [متفق عليه]

«اتقوا الله في النساء. . . » [رواه مسلم]

- البنت: **«اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم»** [متفق عليه]

«ما من مسلم يكون له ثلاث بنات ينفق عليهن حتى يبلغن أو يمتن إلا كنَّ له حجاباً من النار. فقالت امرأة أو بنتان؟ قال: أو بنتان»

[متفق عليه]

وأخيراً:

يا أختي المسلمة بارك الله فيك ووفقك لكل خير إنه نداء إيماني صادق من أخ لأخته المؤمنة التقية النقية، أنت نعم أنت يا أيتها المرأة المسلمة يا من رضيت بالله ربًّا وبمحمد ﷺ نبياً يا من عرفت تأريخك المشرق ورأيت ما هو الجهد العظيم والإسهام الكريم الذي أدّته أخواتك المؤمنات على مر التأريخ وما يمكن أن تؤديه أنتِ. أُحملك المسئولية أمام الله عز وجل وأنت في حرم الله وعلى مقربة من بيت الله الذي شع منه نور الهداية وانبلجت منه شمس الرسالة وتنزل فيه الوحي غضًّا طرياً فاهتم بك ورفع قدرك وخلَّد ذكرك هنا على هذه الأرض الطاهرة نادى برفع منزلتك واحترام حقوقك نبيك ﷺ. يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: (والله إنّا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله في شأنهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم).

والله ما رفع قدرك إلاَّ الإسلام، ولا أمر باحترامك إلاَّ الملك

العلَّام، ولا دعا بصدق إلى القيام بواجبك إلاَّ محمد ﷺ. فإني أناشدك بالله في حرم الله فأقول:

اتقي الله اتقي الله اتقي الله.

اتقي الله في أُمَّة الإسلام، التي تعيش مرحلة قاتمة مخيفة وهي بأشد الحاجة إليك نعم إليك أنت.. من ينشىء الأطفال إلاَّ أنت؟ ومن يخرج الأبطال إلاَّ أنت؟ ومن يقوي همم الرجال إلاَّ أنت؟

اتقي الله وقومي بواجبك العظيم وبالأمانة التي حَمّلك إياها ربك الكريم، إذا فسدت المرأة فسد المجتمع وفسد الأبناء وفسدت البنات وفسد الشباب والشابات، ولكن إذا صلحت المرأة صلح المجتمع وارتقى وارتفع واهتدى وانتفع، وارعوى وارتدع.

يا أختي في الله:

قومي بواجبك في خدمة الحق وأهله، استقيمي على شرع الله، ابتعدي عما حرم الله، قومي بما أوجب الله. وعليك أن تعقلي حقيقة المؤامرات التي تحاك ضدك لتخرجك من مهمتك السامية ومنزلتك العالية ودورك الفعال في بناء الأجيال إلى مجرد دمية وتسلية لِلاَّهين وفريسة للوحوش الضارين من العلمانيين والمنافقين والمخادعين والشَّهوانيين ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ يدّعون المطالبة بحقوقك وهم والله يسعون في عقوقك. فالحذرَ الحذرَ من دعاة الضلالة، وحثالة البشر الذين يسعون بالمجتمعات إلى طريق الخطر، ليزجوا

بها في أقبح منحدر.

أختي الكريمة وبعد أن وفقك الله لزيارة حرم الله والأنس بطاعة الله، فلا تغادري هذه الديار إلاَّ بعد أن تعاهدي الله أن تستقيمي على منهج الله، وتلتزمي أوامر رسول الله، وتتقي الله في عباد الله.

وفقك الله، وحماك الله، وأصلحك الله.

أختاه[1]

قـالـوا لهـا إن الحيـاة كـريهـةٌ ... إن لـم تكـنْ معمـورة بغـرامِ
قـالـوا لهـا فـي خِسَّـةٍ وحقـارةٍ ... حتـى متـى تُبلـى بِلِبْس خيـامِ
قـالـوا نـريـد لأختنـا حـرِّيـةً ... وإلى متى ستعيش عصر ظلامِ
قالوا من الظلم الذي لا يُرتضىٰ ... أن يرتدي الجلباب بدرُ تمامِ
خُدِعتْ بنات المسلمين بدعوةٍ ... مـن ثُلَّـةٍ مـأجـورة الأقـلامِ
صاغت لها الأوهام وجه حقيقةٍ ... فَسَعَتْ بلا وعيٍ إلى الأوهامِ
وبَدَتْ فتاة الحقِّ سلعة فكرةٍ ... لِمَجَّلـةٍ فـي فكـرهـا الهـدَّامِ
أختاه كيف ظننتِ أن معربداً ... يسعـى بمـؤمنـة لأمـر سـامِ!
أختاه كم يرجو اللئيمُ خروجها ... لِتكـون نهبـاً لِلفـؤاد الظـامـي
أختـاه لا يُـرجـى دواءٌ نـاجـعٌ ... من كَفٍّ من يشكو من الأسقامِ
قد يَدّعي معنى العفاف مخادعٌ ... ويصوغ فلسفة الأمان حرامي

---

(١) مقطع من قصيدة عن المرأة المسلمة للمؤلف.

زبيدة وعين زبيدة

يجدر بنا وقد ذكرنا أخباراً موجزة لبعض الأمجاد الشامخة، والمواقف المتألقة للمؤمنات الصالحات على مرّ التأريخ، ويجدر بنا مادام حديثنا عن الحج والحجاج أن نتلبَّث قليلاً لنروي طرفاً من أخبارِ امرأةٍ عظيمة القدر والشأن، قوية الطاعة والإيمان، عظيمة البر والإحسان. إنها امرأةٌ أخلصت لله وعملت لله وطلبت ما عند الله، فكافأها المولى سبحانه وتعالى بأن رفع قدرها في الدنيا قبل الآخرة وأعلى شأنها وتردّد اسمها والدعاء لها على ألسنة الحجاج المؤمنين إلى الآن حوالي ألف ومائتي سنة وذلك إن شاء الله من دلائل الخير والقبول، إنها نعمةٌ عظيمة ومكرمة ربانية، ومنحة إلـٰهية، أن يبقى ذكر الإنسان الحسن وسمعته الطيبة وثناء الناس عليه مئات السنين.

أحد الفضلاء رأى زبيدة في منامه فقال لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي عند أوّل ضربة بالفأس بمكة لإجراء الماء للمسلمين.

فمن هي زبيدة وما هي عين زبيدة؟

الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء افتتح الحديث عن زبيدة بقوله: الستُّ المحجَّبة «أمةُ العزيز» وتكنى أم جعفر بنت

جعفر بن المنصور أبي جعفر العباسية، وكانت عظيمة الجاه والمال، لها آثارٌ حميدة في طريق الحج. . . وكان في قصرها من الجواري نحو مائة جارية كلُّهنَّ يحفظن القرآن. اهـ.

هذه المرأة الصالحة هي زوجة الخليفة الصالح العادل هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ وقد تزوّج بها الرشيد في سنة ١٦٥هـ.

وزبيدة اسمها: «أمةُ العزيز» والذي لقَّبها زبيدة هو جدها أبوجعفر المنصور كان يحبها ويلاعبها وهي صغيرة وكانت بيضاء جميلة ناصعة البياض كأنها الزُّبدة، فكان يلاعبها ويقول: يازبيدة يازبيدة! فغلب ذلك على اسمها. قال أحد المؤرخين الكبار عنها: أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً. اهـ.

ولو أنه حسنٌ وحيدٌ عذرته
ولكنه حُسنٌ وثانٍ وثالثُ

وكانت معروفة بالخير والإنفاق على أهل العلم، فهي تحب العلماء وتوقرهم؛ تحسن إلى طلبة العلم إحساناً كبيراً، وكانت تهتم بالفقراء والمساكين وذوي الحاجة.

قال عنها ابن جبير في كلامه على طريق الحج: «وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة، هي آثار زبيدة ابنة جعفر، انتدبت لذلك مدّة حياتها، فجعلت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعمُّ وفْد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ـ بعد الله تعالى ـ لما سُلكت هذه

الطريق».

وهذا الإمام ابن الجوزي يقول عن هذه المرأة العظيمة: «إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرّاوية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحوت الصخور حتى غلْغَلَتْهُ من الحلِّ إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: أعْمِلها ولو كانت ضرْبة الفأس الواحد بدينار.

وقد نفذت زبيدة عملها العملاق ومهَّدَت الطريق لماء العين في كل خَفْضٍ ورَفع وسهلٍ وجبلٍ ووعرٍ وكان جملة ما أنفقت على العين ألف ألف وسبعمائة ألف دينار. ولهذا يقول أحد المؤرخين في القرن الثامن الهجري أي بعد مرور مئات السنين على وفاة زبيدة رحمها الله عن العين التي أجرَتْها: «إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يُتنزّه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة، ذات بنيان محكم في الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه»اهـ.

لقد مهدت زبيدة طريقاً للحج من بغداد إلى مكة يسمى درب زبيدة أو طريق الجادَّه، وجعلت في هذا الطريق منافع ومرافق على جنباته وحفرت الآبار والعيون وصرفت على هذا الطريق مبالغ عظيمة قيل إنها حوالي (أربعة وخمسين ألف ألف درهم) وقد قامت جامعة الملك سعود بالرياض بعمل بحوث وحفريات لطريق الجادَّه

لتستكشف الآثار والآبار والمرافق المنطمسة فيه فوجدوا من ذلك العجب العجاب من الآبار والآثار التي كانت محيطة بهذا الطريق، وهي كلها من آثار زبيدة رحمها الله.

مرّ بنا طرفٌ من أوصاف العين التي أجرتها زبيدة بمكة ونبذة عن تكاليفها ونحن نزيد القارىء بياناً موجزاً عن هذا المشروع العملاق:

عين زبيدة: هي عين عذبة الماء غزيرة، مباركة، وهي من أجلِّ الأعمال وأعظمها وأكثرها بركة ونفعاً وهي تنبع من وادي نعمان، وقد أجْرَتْ لها الطريق ومهدتها لها حيث تبدأ انطلاقتها من نعمان وهو وادٍ من أكبر الأودية بمكة المكرمة. ثم تمرُّ بعرفات فتقطع وادي عُرَنة إلى الخطْم ثم تنحدر إلى منى ثم إلى مكة، وقد كان الحجيج يعانون من قلة الماء وارتفاع ثمنه قبل وجود هذه العين، فجاءت هذه العين المباركة ماءً بارداً على الظمأ وسُقْياً طيبة تروي غلّة الحاج، وأصبح مُعَوَّل الحجاج عليها بعد الله تعالى واستمرّ ماؤها المتدفِّق مئات السنين ولا يزال إلى اليوم إلاَّ أن مجرى العين القديم قد هُجِر وحول إلى أنابيب ضخمة متطورة ولها اليوم إدارة خاصة بمكة تسمى: «إدارة عين زبيدة».

هذه عجالة موجزة وكلمات مختصرة من أخبار هذه المرأة وآثارها لا أستطيع أن أقول إننا أطلنا الحديث عنها فهي تستحق الكثير والكثير، ولقد حظيت بنصيب وافر في كتب التراجم،

والمؤرخين والجغرافيين والأدباء وغيرهم.

وقبل أن نغادر ساحة أم جعفر ونحن في غاية الإعجاب والإكبار لها، نقف وقفة سريعة مع جانب مشرق من جوانب حياتها وسيرتها الطيبة وأدعو أخواتي المسلمات بالذات إلى تأمّله.

- زبيدة كانت امرأة صالحة عابدة متحجبة لم يضرّها أنها عاشت في بيت خلافة، ولم يخدعها بريق الأموال والترف ولو أنها كانت من ذلك الصنف ما سمعنا لها ذكراً، وما رأينا لها قدراً، وما حازت سمعة طيبة وأجراً.

- زبيدة وجهت المال وجهة صالحة وتاجرت به مع الله.

- زبيدة كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن، ولكل واحدة منهن وِرْدٌ: عشرُ القرآن، وكان يسمع في قصرها دويًّا مثل دويِّ النحل من قراءة القرآن!!!

فأين نساؤنا اليوم من هذه؟ وماذا يُسمع في بيوتنا؟ وماذا نُعلِّم خدَمنا وأبناءنا وبناتنا؟ يا أختي المسلمة هل لك أن تسيري على نهج أختك، ورفيقة دربك زبيدة؟ رحم الله زبيدة وغفر الله لها، ولكل من خاف الله وراقبه، وقدم نفعاً لدينه وإخوانه المسلمين آمين آمين.

كانت وفاة زبيدة ـ رحمها الله ـ ببغداد عام ٢١٦هـ.

وقفة مع زمزم[١]

وزمزم تجري بين عينيك أعيناً　　من الكوثر المعسول منفجرات

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ماء زمزم لما شرب له**»[٢] وقال ﷺ: «**إنها مباركة، إنها طعام طُعم وشفاءُ سُقْم**»[٣].

فليت لنا من ماء زمزم شربة　　تكون لناأمناً لدى موقف الحشر

فيا حبذا ماء لما قد شربته　　كماصح في أخبارصدق بلا نُكرِ

ماء زمزم الإكثار من شربه والتضلع منه خير وبركة، وهو علامة الإيمان وبراءة من النفاق، فقد روي في حديث صحيح عنه ﷺ قوله: «**إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم**»[٤].

فماأنت من أهل الحجون ولاالصفا　　ولالك حظ الشرب من ماء زمزم

تعدُّد الأسماء يدل على شرف المسمى ومن العجيب أن بعض العلماء أحصى لزمزم من الأسماء ما يربو على ستين اسماً منها:

زمزم ـ زُمَازِم ـ بَرّة ـ بُشرى ـ سالمة ـ سيّدة ـ الشَّباعة ـ شفاء سُقم

---

(١) راجع كتاب فضل ماء زمزم لـ د. سائد بكداش.
(٢) رواه أحمد وابن ماجة وصححه الألباني في الإرواء (١١٢٣).
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه ابن ماجة (٣٠٦١).

- صافية - طاهرة - عاصمة - عافية - كافية - مكتومة - ميمونة - وطأة جبريل - نافعة - غياث. . . الخ.

ألا ليت شعري هل أعود لمكةٍ أطوف ببيت اللهوالركن والحِجْر
وأشرب من ماءِ الشفاء بزمزم ليطفي لهيباً في فؤادي كالجمر

قال الشاعر محمد بدر الدين:

يا لها هاجَرُ في إيمانها يا لها عينٌ أبت أن تدمعا
وحْدها والطفل في أحضانها وصدىً من زوجها حين دعا
فامض يا جبريل واحفر زمزما وارو إسماعيل حتى يشبعا
وارو أجيالاً عطاشاً بعده من حجيج البيت كأساً مُتْرعا
إن يكن ماءً ففيه نفحة كم أثارت شوقهم والأدمعا
تسعد الأرواح من تشرابه وترى الريحان والرّوح معا
آية الإيمان ريٌّ كامل منه حتى لا تلاقي موضعا

ابن المبارك والماء المبارك

يتجه ذلك الرجل العابد الزاهد العالم المحدث الفقيه، يتجه إلى زمزم، يتجه الرجل المبارك في البلد المبارك، في الزمن المبارك، إلى الماء المبارك، والناس تتابع تحركاته وتستأنس بكلماته ونظراته. يذهب إلى زمزم يحف به أحبابه وأصحابه وطلبة العلم الذين يتتلمذون على يديه. يغرف لنفسه كأساً من ماء زمزم، فحينما قبض براحته الملتهبة من وهج الظهيرة وشدة الحر حينما قبض على الإناء لمس منه تلك البرودة اللطيفة المنعشة.

النفس تتلهف إلى هذا الإناء لتروي به غلتها وتطفىء به حرارة العطش. هنا تتناثر الدموع من عين عبدالله ثُمَّ يتجه إلى السماء فيقول: اللهم إن رسولك قد قال: **ماء زمزم لما شُرب له**. اللهم إني أشربه لعطش يوم القيامة!!

وقبل أن نغادر ساحة ابن المبارك ـ رحمه الله ـ هذا الإمام العظيم المولود سنة ثمان عشرة ومئة، نجد لزاماً علينا أن نشنِّف الأسماع، ونمتع القلوب بشيء من أخباره العظيمة وخصوصاً التي لها صلة بموضوعنا ـ أعني الحج وأخباره ـ. كانت لابن المبارك رحلات متعددة وأسفار كثيرة، وقد سافر إلى البلد الحرام للحج عدة مرات، وكما أوتي بسطة في العلم والفضل، فقد أوتي بسطة

في المال، وكان رجلاً كريماً معطاءاً تضرب بكرمه الأمثال. فإليك بعض أخباره:

سفره للحج :

إذا أعدّ ابن المبارك عدته للسفر للحج وأزمع المسير إلى البيت الحرام اجتمع إليه إخوانه وأصدقاؤه من أهل مَرْو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرْو إلى بغداد، فلايزال ينفق عليهم، ويطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زيٍّ وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فيقول لكل واحدٍ منهم، ماذا أمَرَك عيالُك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفِها فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجَّهم، قال لكل واحدٍ منهم: ماذا أمرك عيالك أن نشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلايزال ينفق عليهم إلى أن يصلوا إلى بلادهم «مَرْو» فيجصِّص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسُرّوا، دعا بالصندوق الذي كان قد وضع فيه نفقاتهم، ففتحه ودفع إلى كلِّ رجل منهم صرَّته وعليها اسمه، كاملة لم ينقص منها شيء لأنه جعل الإنفاق عليهم كله من ماله الخاص فياله من كرم فياض وشأوٍ لا يُلحق وعزمٍ لا يُسبق.

ابن المبارك يُلغي سفره ويعود:

لعلك قد وقفت في غاية الإعجاب والإكبار والإجلال لهذه الشخصية العظيمة التي كانت تقتبس من نور النبوة كيف لا وهو من أعظم رواة حديث النبي ﷺ ولكن تعال معي الآن لأنتقل بك إلى أعجوبة أخرى، ورائعة عظيمة، من روائع هذا المسافر الصالح إنه كان ذاهباً في رحلة من رحلاته إلى الحج فحينما كان ببغداد وأخذ نفقته وهي خمسمائة دينار وخرج إلى السوق ليشتري آلة الحج وعدته، فبينما هو في الطريق إذ عرضت له امرأةٌ فقالت: رحمك الله، أنا امرأة شريفة ولي بنات عراه، ولليوم الرابع ما أكلنا شيئاً. وفي رواية: أنه وجدها على مزبلة تنتف بطّة ميتة لتأكلها هي وبناتها. يقول: فوقع كلامها في نفسي فطرحت الخمسمائة دينار في طرف إزارها وقلت: عودي إلى بيتك، واستعيني بهذه الدنانير على قضاء حوائجك. وانصرفتْ ونزع الله عز وجل من قلبي حلاوة الخروج للحج تلك السنة.

وأنت أخي الحاج خذ هذه المواقف العجيبة وقارنها بأحوال أناس ممن أغناهم الله من واسع فضله ومع ذلك تجد من جيرانهم من يموت جوعاً ولا يدري به. رحم الله ابن المبارك رحمة واسعة وجمعنا به في جنات النعيم.

فاروق الأمة يبكي

في يوم عرفة في يوم الجمعة في أعظم وأجل وأنقى وأتقى موقف تشهده عرفات، موقف بديع وموكب نوراني يتقدمه محمد ﷺ، عرفات ترتج بدعاء الصحابة الميامين، الأودية تدوي بنغمات الموحدين وآهات المتأوهين، الرسول ﷺ يناجي ربه وينطرح بين يديه يصعد الجبل فيخطب في مائة وعشرين ألفاً من الصحابة الجميع آذانٌ صاغية لكلماته ونبراته التي كانت بقدرة الله تعالى تصل إلى كل قلب قبل الآذان رغم ضخامة العدد وجلال الموقف ولم يكن هنالك مكبرات للصوت ولكن نسمات الريح كانت بإذن ربها تتبختر فرحاً، وهي تطير بعذوبة الكلمات النبوية فتلامس بها جميع الأسماع وتطرق بها القلوب المتعطشة.

في هذه الأثناء، وفي زحمة هذا الموقف الخالد تتنزل على رسول الله ﷺ آيةٌ من أعظم الآيات ودرة من أغلى الدرر، ومنة من أعظم المنن ولكنها في الوقت نفسه تحمل في طياتها نعيه ﷺ الذي فهمه أهل الفهم والإلهام، ينزل عليه قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ هنا ينتفض فاروق الأمة عمر بن الخطاب، وتأخذه الرعشة وتخنقه العبرة، فتسيل دموعه مدراراً!!

لماذا يبكي عمر؟ إنها آية رائعة، ومنة من الله عظيمة، وكلام يثلج الصدور!! حقاً إنه موقف غريب. تعجب منه رسول الله ﷺ، فهمس في إذن صاحبه وفاروقه: «**ما يبكيك يا عمر؟**» يكفكف عمر دموعه، ويمسح عبراته، ويجيب ولصدره أزيز ونشيج: يارسول الله أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلاَّ نقص.

حسب القوافي وحسبي حين أبديها

أني إلى ساحة الفاروق أهديها

قد كنتَ أعدى أعاديها فصرت لها

بفضل ربك حصناً من أعاديها

يا لها من عبقرية، يا له من فقه نوراني، يا له من ذكاء خارق، يا لها من نفس مؤمنة تكاد تستشف الحقائق من وراء الحجب يتعجب ﷺ من فقه عمر وفهمه الصائب فيجيبه في إعجاب وإكبار واعتراف: «**صدقت**» نعم والله يا أمير المؤمنين صدقت، ولقد حدث ذلك النقص الذي لا يعوّض أبداً، فقد مات ﷺ بعد هذا اليوم الذي تنزَّلت فيه هذه الآية، بإحدى وثمانين ليلة كما قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ.

الحقد اليهودي

شَرِقَ اليهود بهذا الدين وبمبعث هذا الرسول ﷺ وأفعمت قلوبهم حقداً وغضباً وحسداً لهذه الأمة، واستمر حقدهم ومكرهم الذي لن يفنىٰ إلا بفنائهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ . . .﴾ هذا استطراد موجز ولمحة سريعة بين يدي هذه الفقرة والتي لها صلة بالآية العظيمة الآنفة الذكر: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . .﴾ فقد حسدنا عليها اليهود وتمنوا لو أنها لهم. روى الإمام أحمد: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: ياأمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: وأي آية؟

قال: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة.

إيجاز وإعجاز

تأمل معي أخي الكريم تلك الآية البديعة التي مرت بنا. انظر إلى روعة التعبير، انظر إلى اختيار الكلمات؛ كل كلمة في مكانها المناسب.

﴿أَكْمَلْتُ ـ وَأَتْمَمْتُ ـ وَرَضِيتُ﴾

انظر إلى الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز!! في هذه الآية يَمْتَنُّ الله تعالى على نبيه بهذه المنن العظيمة فتأمل حقيقة المنة في قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أية نعمة هذه التي أتمها الله على نبيه؟! أية نعمة وقد كان ينام على الحصير حتى أثّر في جنبه، أية نعمة وقد كان يمر الشهر والشهران ولم يوقد في بيته ﷺ نار؟!

أية نعمة، وقد كان يربط الحجر على بطنه من الجوع؟!

أية نعمة وقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير؟!

أية نعمة هذه التي يمْتَنُّ الله تعالى بإتمامها على نبيه؟ لعلك عرفت الآن أنها النعمة الحقيقية التي لا تعدلها نعمة، والمنة التي لا يوازيها منة؛ إنها نعمة الإسلام، نعمة الإيمان، نعمة التوحيد، نعمة لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله.

ابن عباس في عرفة

يقف عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ في يوم عرفة في سنة من سنوات حجه والناس يتسابقون إليه ويتمنَّون رؤيته وسماع نبراته التي امتزجت بنور النبوة، يريدون رؤية حبر الأمة وترجمان القرآن. ابن عباس يستغل هذا الموقف الرهيب ويؤدي واجبه تجاه الأمة كعالم من علمائها العظماء، فيركب على ناقته ثم يفتتح بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله، ويبدأ يفسر سورة البقرة. ففسرها كاملة. يقول الراوي: فوالله ما تلعثم في آية ولا نسي آية.

قال أبو وائل: والذي نفسي بيده لو سمعه اليهود والنصارى لأسلموا عن بكرة أبيهم.

لا إله إلا الله

قال ﷺ: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له» [رواه الترمذي]

روى الحاكم «أن موسى عليه السلام قال: يارب علّمني دعاء أدعوك به وأناجيك.

قال: يا موسى قل: لا إله إلاّ الله.

قال موسى: يارب كل الناس يقولون لا إله إلاّ الله.

قال: يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين في كّفة، ولا إله إلاّ الله في كفة لمالت بهنَّ لا إله إلا الله»!!!

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك. ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطّت خطاياه، ولو كانت مثل زبَدِ البحر» [رواه مسلم].

دمعة على صعيد عرفات

إلى عرفات الله يا كل مسلم   عليك سلام الله في عرفات

كانت الشمس في ذلك الوقت تصب سيلاً من شعاعها الذهبي المتوهج على بطاح مكة وجبالها السوداء والرياح تلفح الوجوه بحرارة الصيف المُتَّقدة كان يقف على جبل عرفات بلباس الإحرام وعرفات تتشح بالبياض وكأنه القطن المندوف.

أرسل بصره إلى الأفق، وهو يتأمل روعة المشهد والتناغم يحيط بالحياة من كل مكان، ربٌّ واحد تتجه إليه هذه القلوب بآمالها وآلامها، نداءٌ واحد، هو نداء الإيمان الذي لا يختلف، وإن تعددت الألسنة، وتباينت اللغات، غاية واحدة تصطف لها هذه الجموع في هذا اليوم المشهود، مكان واحد يضم هذا الشتات من آفاق الدنيا ساعتها.. ثار في ذاكرته سؤال لا يفارقه.. عن حال الأمة، التي تكالبت عليها الأمم وتداعت كما تتداعى الأكلة على قصعتها، لم لا تتحقق هذه الوحدة في واقع الحياة، وهنا سالت على خده دمعة حب ووفاء لهذه الأمة التي تناوشتها السهام من كل مكان.

وفي غمرة هذا الحزن كان للأمل شمعة لم تنطفىءْ في فؤاده المتوهج فإن هذه الأمة التي تجتمع في كل عام على هذا الصعيد،

سيكون وقوفها وقوداً يدفعها إلى الأمام، ووقفة تحاسب فيها النفس، وتستجمع القوى، لتكون الوحدة والتوحيد شعاراً وواقعاً وطريقاً للنصر بإذن الله تعالى.

فقد بلغ منها الجهد مبلغاً عظيماً ومزقتها الأيدي الحاقدة كل ممزق؛ لأنها مزقت ستار عزتها وقطعت حبل وحدتها، فأصبحت تعيش المأساة في أشدِّ ألوانها وأمرّ أشكالها.

أخذ يترنم ببعض قصائده ودموعه تبلل لحيته السوداء.

يا أمتي أمّلي في الله واتصلي ... بحبله واحذري من كلِ فتَّانِ
يا أمةً باتحاد الصف رفعتها ... أما التفرُّق يصلاها بنيران
والله لا عِزَّةٌ ترجى ولا أملٌ ... بفرقةٍ واختلافات وأضغان
تشبَّثي أمتي في كل داعيةٍ ... وعالم ناصح بالحقِّ رباني
الخير في عودةٍ لله صادقةٍ ... الخير في سُنَّة مثلىٰ وقرآنِ
نهر الهداية لازالت منابعهُ ... تجلوالهموم وتروي صدر هَيْمان
واللهماخاب من يرضى به حكماً ... سلطانه يتحدى كلّ سلطانِ

هنا يهيج بالبكاء وتكاد وجنتاه أن تحترق من حرارة الدموع حيث يرى هذه الآلاف المؤلفة ذات الرب الواحد والدين الواحد، واللباس الواحد، ولكن القلوب لاتزال متباينة مختلفة متفرقة، عندها كان حاجٍ يقف بجواره دنا منه وسلّم عليه وأعطاه كأساً من ماء زمزم، قائلاً له: ادع الله أن ينصر هذه الأمة.

وداعاً يا عرفات

وهكذا أخي الحاج نودع عرفات والقلوب تفيض أملاً، وتطفح سروراً، بذلك المشهد الرهيب، والموقف الخالد الذي ينزرع في الفؤاد وينغرس في أعماق النفس ويضرب بجذوره النديَّة في خلجات الضمير.

أكثر من مليوني إنسان يقفون كلهم في موقف واحد، بلباسٍ واحد، لهدف واحد، وتحت شعار واحد، يدعون ربًّا واحداً، ويتبعون نبيًّا واحداً ﷺ، تقف هذه الجموع كلها تتكلم مع الله وتناجيه في علاه وهل ذلك بلسان واحد ولغة واحدة؟ عدد اللغات التي تتكلم مع الله في يوم عرفة يربو على ثلاثمائة وخمسين لغة فياسبحان الله الذي لا تختلف عليه اللغات ولا تتشابه عليه الأصوات، يسمع دعاء هذا، ويجيب دعوة هذا، ويحقق رغبة هذا، ويسمع تأوه هذا، ويعطي هذا، ويمنع هذا، ويرفع هذا، ويخفض هذا (فسبحانه سبحانه سبحانه) قلت:

ضَجَّت خدودي من لظى عبراتي ... لمـا وقَفـتُ على ثرى عرفاتِ

وتَيَبَّستْ شفتي وتاهت أحرفي ... وجلاً وكادت تنطفي كلماتِي

لَمَّا ذكرتُ الموت في أهواله ... وذكرتُ هول النزع والسكراتِ

وذكرتُ بالجمع الغفير مواقفاً ... أخرى بيوم الحشر والحسرات

ومضى لهيب الخوف يحرق مهجتي والنفس تبكي سالف الغدرات
فرفعت كفي والدموع كأنها سيلٌ تدفَّق من ذُرىٰ السَّروات
ياربِّ تبت إليك فاقبل توبتي واجعل مكان السيء الحسنات
فسمعت في عمق الضمير منادياً دَعْ ما مضى وقضى وقم للآتي
واعلم بأن الله أرحم راحم وسيدمغ الآحاد بالعشرات[1]

(١) إشارة إلى أن السيئة تكتب واحدة والحسنة بعشر أمثالها.

امرأةٌ في الطواف

قال وهيب بن الورد المتوفى سنة ١٥٣هـ، وهو أحد العبَّاد الزهَّاد قال: بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول: يارب! ذهبت اللذات وبقيت التبعات، يارب! سبحانك، وعزتك إنك لأرحم الراحمين؛ يارب! ما لك عقوبة إلاَّ النار. فقالت صاحبة لها كانت معها: يا أُخيَّة أنت في بيت ربك سبحانه وتعالى. فقالت: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي، فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي عز وجل؟ وقد علمتُ حيث مشتا وأين مشتا. [مثير الغرام الساكن ص٣٠٢]

عودة إلى عمر بن الخطاب

حج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في سنة من السنوات، وهو أميرٌ للمؤمنين، وخليفة للمسلمين، يحج وقد ملأ الدنيا عدلاً ونوراً وصلاحاً، وفلاحاً، يحج عمر مع رعيته. فبعد أن فرغ من حجه جلس في الأبطح واتكأ اتكاءة حزينة مطرقة وبجواره ابنته حفصة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فاتجه إلى السماء ورفع يديه إلى الله في طهر ونقاء.

عمر لم يُلطِّخ يَدَهُ بدماء المسلمين ثم يأتِ للحج، عمر لم يحكِّم القوانين الوضعية في رعيته ثم يأتِ للحج، عمر لم يُذِقْ الأمة مرارة الظلم وصنوف التنكيل ثم يأتِ للحج، عمر لم ينشىء المسارح والملاهي والمراقص والقنوات الهابطة ثم يأتِ للحج.. كلا.. كلا.. كلا..

ثم يرفع عمر يديه إلى السماء ويقول:

اللهم إنه قد رق عظمي وشاب رأسي، ودنا أجلي، وضاعت رعيتي فاقبضني إليك غير مُفرِّطٍ ولا مفتون.

اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك وموتاً في بلد رسولك ﷺ.

هنا تلوح علامات الاستفهام على وجه حفصة متعجبةً، فتقول له: يا أبتاه كيف شهادة في سبيله وموتاً في بلد رسوله ـ لأن

الشهادة ستكون في قتال والمدينة لا قتال فيها ـ فيقول: هكذا سألت الله وأسأل الله أن يستجيب دعوتي. فما حج بعدها أبداً وحقق الله أمنيته فقُتل شهيداً وهو يصلي الفجر ويُمَرِّغُ جبهته لله ودفن بجوار حبيبه رسول الله ﷺ، رضي الله عن عمر وأرضاه.

عليك سلام من أمير وباركتْ يـدُ الله فـي ذاك الأديـم الممـزقِ
فمن يسعَ أويركب جناحي نعامةٍ ليدرك ما قدَّمتَ بالأمس يسبقِ

دعاني من هو خير منك

حج الحجاج فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة، ودعا بالغداء، وقال لحاجبه: انظر من يتغدى معي، واسأله عن بعض الأمر، فنظر نحو الجبل، فإذا هو بأعرابي بين شملتين من شَعْر نائم، فضربه برجله، وقال: ائت الأمير، فأتاه. فقال له الحجاج: اغسل يدك وتغدّ معي. فقال: إنه دعاني من هو خير منك. قال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل دعاني إلى الصوم فصمت. قال: في هذا الحر الشديد! قال: نعم، صمت ليوم هو أشد حراً من هذا اليوم. قال: فأفطر وتصوم غداً. قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك لي. قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إنه طعام طيب. قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ، ولكن طيبته العافية.

شرف الدنيا والآخرة

حجَّ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ إحدى السنوات فابتنى بالأبطح مجلساً فجلس عليه ومعه زوجته، وكان الحرّاس لا يسمحون بالعبور من ذلك المكان إلاَّ لمن أذن له معاوية.

فبينا معاوية جالس مع زوجته إذا هو بجماعة على رحال لهم، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يغني قائلاً:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العربْ
من يساجلني يساجل ماجداً يملؤ الدلو إلى عقد الكُربْ

فقال معاوية: من هذا؟

فقالوا: فلان ابن جعفر بن أبي طالب.

قال: خلُّوا له الطريق فليذهب.

ثم إذا هو بجماعة آخرين وفيهم غلام يغني:

بينما يذكرنني أبصرنني عند قد الميل يسعى بي الأغرّ
قلنَ تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال معاوية: من هذا؟

قالوا: عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة.

قال: خلوا له الطريق فليذهب.

ثم إذا هو بجماعة كبيرة كالغمام، وإذا هم يحيطون برجل

يسألونه فبعضهم يقول: رَمَيْتُ قبل أن أحلق، وبعضهم يقول: حلقت قبل أن أرمي، وإذا الناس يسألونه عن أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج، وهو كالبحر المتدفق، فتعجب معاوية من هذا الموقف فقال: من هذا؟

قالوا: هذا عبدالله بن عمر بن الخطاب.

فالتفت معاوية إلى زوجته فقال لها: هذا والله شرف الدنيا والآخرة.

وصمة عار من التأريخ الأسود

كثيرةٌ تلك الفرق الماردة التي مُنيتْ بها أمة الإسلام وكثيرةٌ الدول الجائرة الماردة في التأريخ، وكثير الزعماء الذين مروا في التأريخ عموماً، وفي تأريخ الإسلام خصوصاً فكانوا وصمة عار في جبين التأريخ؛ لأنهم خرجوا عن شرع الله وظلموا عباد الله وقتّلوا أولياء الله. كثيرٌ أولئك الذين يستحقون أن تكتب حياتهم بمداد من العَفَن على صفحات من التِّبن. ومن الفرق الماردة عن الإسلام فِرقةٌ سَوَّدتْ صفحات التأريخ، وهي فرقة القرامطة. من الفرق الباطنية الكافرة، تنسب إلى رجل اسمه حمدان الملقب بقرمط، وقد كانت مساكنهم بالأحساء،هجم هؤلاءالصعاليك على الكعبةفاقتلعوا الحجر الأسود ثم انطلقوا به إلى الأحساء، قيل إنهم حملوه على سبعمائة جمل فكلمامشى به جملٌ مشى قليلاً ثم مات الجمل!! فلما أعادوه بعدعدّةسنوات أُعيدعلى جملٍ واحد ولم يَضرّه شيءوسبحان الخالق

الدماء البريئة :

قتلت القرامطة عدداً هائلاً من علماء المسلمين وعامتهم وكان ممن تلطخوا بدمائه عالم من أهل السنة قتلوه بين الحجر والمقام فهوى صريعاً وهو يردّد:

ترى المحبِّين صرعى في ديارهم كَفِتْية الكهف لا يدرون كم لبثوا

قلت: ألا قبح الله تلك الأيدي الآثمة وكل يدٍ تريد فيه إلحادًا بظلم.

الوزير العابد

رجلٌ عظيم من رجال تأريخنا الإسلامي المعطاء، رجل تسلم منصب الوزارة فكان آية في العلم والتقى، والعقل والنُّهى، والآن أنتقل بكم إلى هنالك حيث نستمع إلى الإمام الذهبي ليحدثنا عن هذا الوزير:

قال الذهبي: الوزير الكامل، الإمام العادل، عون الدين، يمين الخلافة؛ أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الحنبلي.

وماذا عن شخصية ابن هبيرة؟

ابن هبيرة: تولى الوزارة في عام ٥٤٤هـ وكان ديِّناً خيِّراً، متعبداً عاقلاً وقوراً متواضعاً، جزل الرأي، بارّاً بالعلماء، مكبًّا مع أعباء الوزارة على العلم وتديونه، كبير الشأن، حسنة الزمان.

وبعد هذه البطاقة الشخصية السريعة والتي تفضل بتقديمها لنا الإمام الذهبي نعود لنقف مع الوزير العابد وقفة أخرى تتجلى فيها عبادته وصدقه ومحبة الله له.

حج الوزير ابن هبيرة - رحمه الله - قدم إلى البلد الحرام في موكبه الإيماني الطاهر في صحبة العلماء والفقهاء والفضلاء، وفي هذه السنة انقطع الماء على الحجيج، وهم في منى، فأصابهم عطشٌ شديد، وبلغ منهم الكرب مبلغاً عظيماً. هنا تَتَّجه الوفود إلى

حيث يقيم الوزير يدخلون عليه مباشرة، فليس بينه وبينهم حجاب.

يدخلون يشكون إليه شدّة العطش وما حلّ بالحجاج. فيقوم الوزير العابد مسرعاً بقلبٍ يفيض طهراً ونفسٍ تتوقّد إيماناً.

فيتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يبكي وينطرح بين يدي ربه ـ سبحانه وتعالى ـ فيدعوه أن يغيث ضيوف بيته.

فما هي إلاَّ لحظات فإذا السُّحب تسودُّ وإذا الجو يَرْبدُّ وانعقد الغمام في السماء، فتدفق على الحجيج الماء، وإذا بالغيث ثجَّ، وقد نزل معه الثلج، فشرب الناس وارتووا بسبب دعوة ذلك الوزير الخاشع العابد المبارك. هنا يجهش الوزير بالبكاء وينثر دموعه التي بللت لحيته يبكي لما رأى دعوتَه استجيبت فيقول: يا ليتني دعوت الله بالمغفرة.

الخليفة العادل

لعلنا بعد ذكر هذه القصة الرائعة عن الوزير العابد نُشَنِّف الأسماع بقصة أخرى، تشبهها، لكنها متقدمة عليها وهي للخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ فقد حج بالمسلمين في سنة ثمان وثمانين وكان معه جماعات من أشراف قريش، فلما وصل إلى التنعيم لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر، وأنهم يعانون من ذلك عناءً شديداً، فقال عمر العابد العادل الواثق بربه، قال لأصحابه: ألا نستمطر؟ فقالوا: الرأي ما ترى.

فجمع الناس ثم ابتهل إلى الله يدعوه أن يغيث المسلمين، ودعا معه المسلمون، فمازالوا يدعون الله تعالى ويرجونه حتى أُجيبت دعوتهم وهطلت الأمطار الغزيرة ودخلوا مكة ومعهم المطر، وجاء سيل عظيم، حتى خاف أهل مكة من شدة المطر وغزارته، ومُطِرَت عرفة ومزدلفة ومنى، وأخصبت الأرض في تلك السنة خصباً عظيماً بمكة وما حولها، وذلك ببركة دعاء عمر ومن كان معه من المؤمنين الصالحين.

دعوابك واستسقوا فلبّى دعاءَهُم — من الأفق تَانٌ من المزن قدهَمَى
ألحَّ على أوعارهم وسهولهم — وحيّا عَبُوس القفر حتى تبسَّما
ولما طوى بطحاء مكة هزَّهُ — إلى البيت شوقُ المستهامِ فيمَّمَا

ألك إليّ حاجة ؟

حج سليمان بن عبدالملك خليفة المسلمين، فبينا هو يطوف رأى في الطواف سالم بن عبدالله بن عمر وحذاؤه المقطَّعة في يده وعليه ملابس لا تساوي ثلاثة دراهم، فاقترب منه وسلَّم عليه ثم قال له: ياسالم أَلَك إليَّ حاجة؟

هنا ينظر إليه سالم نظرة استغراب وقد علا وجهه شيء من علامات الذهول والغضب فيقول له: ياسليمان! أنا في بيت الله وتريد مني أن أرفع حاجتي إلي غير الله؟

فيترك سالماً ثم يواصل طوافه.

وأخذ يراقبه عن بعد فلما رآه خارجاً إلى خارج الحرم لحق به.

فاقترب منه مرة أخرى فكلمه، كلَّمه لأنه يحبه ويقدره وهكذا ينبغي أن يُعرف قدر العلماء والصالحين قال له: ياسالم أبيت أن تعرض عليَّ حاجتك في الحرم فاسألني الآن وأنت خارج الحرم.

فقال له سالم: هل أرفع إليك حاجة من حوائج الدنيا أو من حوائج الآخرة؟قال الخليفة: يا سالم من حوائج الدنيا، أما حوائج الآخرة، فلا يسأل فيها إلاَّ الله.هنا يتعجب سالم من هذا الكلام فيقول له: **يا سليمان والله ما طلبت حاجة من حوائج الدنيا من الذي يملكها فكيف أطلبها ممن لا يملكها؟!!**

العلم يرفع أقواماً ويضع آخرين

نادى منادي خليفة المسلمين سليمان بن عبدالملك نادى في الناس أن لايفتي في المناسك إلاَّعطاء. فأقبل الناس عليه مثل الغمام

عطاء! ومن هو يا تُرى عطاء هذا الذي يُكَرِّمه الخليفة فيوكل إليه أمورالفتيا للحجاج والمعتمرين؟ لعل العَجب يذهب بك كلَّ مذهب إذا علمت أن عطاء هذا مولى أسود، أفطس، كأنَّ رأسه زبيبة، أعمى، أشلَّ، أعرج!ياألله لاأكاد أصدق وماهي الميزة التي أوصلته إلى هذه المنزلة؟! إنه العلم؛ إنه العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ

نعود الآن أيها الأحبة إلى الخليفة سليمان بن عبدالملك وهو يؤدي نسكه تعرض له مسألة فيحتاج إلى أن يسأل عنها، فيذهب إلى عطاء، فيجد الناس عليه كالغمام، ويأخذ الخليفة مكانه مع الناس حتى جاء دوره ليسأل عطاء.

بعد هذا الموقف الذي حدث للخليفة عاد مباشرة إلى أبنائه فأخذهم في زاوية من زوايا الحرم وهمس في آذانهم جميعاً قائلاً:

يا بَنيَّ عليكم بالعلم فوالله ما ذللت لأحدٍ من الناس إلا لهذا العبد. لقد كان عطاء ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث. قال أبوجعفر الباقر وغيره: ما بقي أَحدٌ في زمانه أعلم بالمناسك منه، وقيل: إنه قد حج سبعين حجة وقد عاش مائة سنة رحمه الله رحمة واسعة.

[البداية والنهاية لابن كثير جـ٥ ص٣١٨]

سليمان وعمر

الحديث يجذبُ بعضه بعضاً فها نحن قبل أن نغادر ساحة سليمان بن عبدالملك، نعود لهذه الوقفة الرائعة التي كانت لسليمان ابن عبدالملك مع عمر بن عبدالعزيز وهي من وحي الحج أيضاً:

حج سليمان بن عبدالملك ـ وكان خليفة للمسلمين ـ فلما رأى الأعداد الهائلة من الحجاج بالموسم، قال لعمر بن عبدالعزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلاالله ولايسع رزقهم غيره!

فقال له عمر: **يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غداً خصماؤك عند الله.**

فوقعت هذه الموعظة من قلبه موقعاً عظيماً كاد ينخلع لها فؤاده فبكى بكاءً شديداً ثم قال: بالله أستعين.

ويا عجباً لعمر بن عبدالعزيز ولعبقريته وفقهه وتقواه،وحسن انتقائه للمواعظ المؤثرة في الأوقات المناسبة.

كان يوماً في سفر مع سليمان بن عبدالملك فنزلت عليهم أمطار وصحب ذلك رعدٌ مزمجر، وبرق شديد، وظلمة حالكة، وريح شديدة حتى فزعوا لذلك فزعاً شديداً وجعل عمر بن عبدالعزيز يضحك.

فقال له سليمان: ما يضحكك يا عمر؟ أما ترى ما نحن فيه؟!
فقال له: ياأمير المؤمنين هذه آثار رحمته ـ يقصد بذلك الأمطار ـ وفيها من الشدائد والمخاوف ما ترى، فكيف بآثار سخطه وغضبه؟

هارون الرشيد

هنا في مكة يتقدم الخليفة العادل والملك الصالح: هارون الرشيد، يتقدم ليصلي بالناس في المسجد الحرام، يصلي بهم صلاة الفجر، ما أجمله من مشهد يوم أن يكون المتقدم للصلاة بالناس والذي يؤم الناس هو أميرهم وقائدهم.

يصلي بهم صلاة الفجر فيقرأ بسورتَيْ الرحمن والواقعة، فإذا بصوته الندي ينساب إلى الآذان فيلامس القلوب قبل أن يلامس الأسماع، وكان يصلي خلفه الفضيل بن عياض العابد الخاشع الذي كان إذا سمع الآية المؤثرة سقط مغشياً عليه، صلى الفضيل خلف الرشيد، فلما انتهى من الصلاة قال الفضيل بصوته المدوِّي ونغماته الخاشعة: لا إله إلاَّ الله ليت هارون الرشيد يدري بما في هاتين السورتين.

بر الوالدين في الحج

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

كان رجل يطوف بالبيت في شدّة الزحام حاملاً أمّه على كتفيه يطوف بها وقد أعياه التعب والحر الشديد. فلما رأى ابن عمر رضي الله عنه هرول مسرعاً إليه. فقال له: يا ابن عمر هل ترى أني وفَّيت أمي حقها؟ قال له ابن عمر: ولا بزفرةٍ واحدةٍ من زفراتها!!!

وعن بر الوالدين يقول أمية بن أبي الصلت وما أحسن ما قال:

غذوتكَ مولوداً وعلتك يافعاً ... تعـلّ بمـا أدنـي إليـك وتنهـلُ
إذا ليلةٌ نابتك بالشكو لم أبتْ ... لشكـواك إلاَّ سـاهـراً أتملمـلُ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقتَ به دوني وعينيّ تهملُ
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموتَ حتمٌ مؤجلُ
فلما بلغتَ السن والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنت فيك أُؤمِّلُ
جَعلتَ جزائي منك جبهاًوغلظة ... كـأنك أنـت المنعمُ المتفضـلُ
فليتك إذ لم ترعَ حق أُبُوّتي ... فعلتَ كما الجارُ المجاور يفعلُ
وسميتَنـي بـاسـم المفنـدِ رأيـهُ ... وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقلُ
تـراه مُعِـدّاً للخـلاف كـأنـهُ ... بِردٍّ على أهل الصواب مُوَكّلُ

أم المؤمنين تسكب العبرات

حَجَّتْ أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ في سنة من السنوات فلما وصلت عند ريع الحجون وقفت هنالك حتى تراءت أمام عينيها ذكريات مؤثرة، وهاجت في نفسها دواعي الألم والحسرة، وارتسمت على وجهها الإيماني آثار الحزن واللوعة، وتساقطت كحبات اللؤلؤ دموعها الملتهبة.

تبكي أم المؤمنين هنا عند قبر أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ حينما مرت به فسلمت وبكت وقالت: ما مثلي ومثلك إلاَّ كما قال الشاعر يرثي أخاه:

وكُنّا كَنَدْمَاني جُذيمة برهةً من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبَّعا

فلما تفرقنا كأنَّي ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

التعب الضائع

المتأمل في هذا الدين العظيم يجد أن الله تعالى قد جعل لعباده فيه مواسم للخير ومحطات للتزود بالإيمان، مواسم عظيمة وعبادات جليلة، فرضها الله تعالى لتقويم هذا الإنسان ولتزكيته وتربيته على معاني الحق والخير والجمال. ولكن الذي يبعث في النفس الأسى والحرقة أن كثيراً من الناس غابت عنهم المعاني الحقيقية لمثل هذه العبادات فأمسكوا بظواهرها وضيّعوا جوهرها، فأصبح الإنسان يؤدي هذه العبادات دون أن يعقل المقصود منها، فانظر مثلاً إلى الصيام هل فرضه الله تعالى لمجرد حرمان النفس من الأكل والشرب في هذه الفترة المحددة؟

وهل الله تعالى بحاجة إلى تعذيب الإنسان بنهيه عن الأكل وأمره بالإمساك عن الأكل والشرب لمجرد الإمساك فقط عن ذلك دون غرض سامي ومعنىً أعمق؟

وهل يكفي في الإسلام أن يحبس المرء نفسه عن الأكل والشرب فقط فَيُعدَّ صائماً بحق ويستحق ثواب الصائمين؟

قال ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» [رواه البخاري]

وقال: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن**

سابه أحد أو شاتمه فليقل إني امرؤٌ صائم» [متفق عليه]

إذن هناك غاية عظيمة؛ وهي تعويد الإنسان على كبح جماح النفس وحرمانها من الشهوات وقسرها على الحق وتدريبها على التقوى، ولذلك قال تعالى معللاً سبب فرضية الصيام: ﴿.. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ..﴾ وكذلك الأمر فيما يتعلق بالحج فليس المقصود من الحج أن يتعب الإنسان نفسه وأن يضني بدنه مؤدياً تلك الشعائر بمعزل عن الأمر المهم وهو تربية النفس على مكارم الأخلاق وتعويدها على جميل الطباع والترقي بها في مراقي الكمال.

الحج تربية على مكارم الأخلاق، تربية على التخفف من الشهوات، تربية على حسن التعامل، تربية على التجرد لله، تربية على تقوى الله وحسن مراقبته، تربية على الجدية في العمل والتقوّي بالطاعة.

ولذلك قال ﷺ عن الحج أيضاً: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»** [متفق عليه]

فالشرط لغفران الذنوب هو: عدم الرفث، عدم الفسوق، وقبل ذلك كله تأمل قول الله تعالى وهو يرسم للمؤمنين المنهج القويم لتربية النفوس، ويبين لهم الآداب والمعاني التي يجب أن تتمثل في حجهم:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾.

انظر إلى هذه المعاني التي ترسيها هذه العبادة، ثم انظر لتصرفات كثير من الناس وأعمال عدد من المُحْرِمين، الذين ليس عليهم من سمات الحجاج إلا ملابس الإحرام، الأخلاق سيئة... الرفث كثير... الاعتداء على الحجاج باللسان أو باليد شديد... الجدال كثير.

والسؤال الذي ينبغي أن تسأله هو: لماذا حج هؤلاء؟؟!!

هذه قصيدة لأحد الشعراء خاطب بها أحد أصدقائه الذين ذهبوا للحج ثم لم ينتفعوا بذلك فهم لازالوا في ذنوبهم ومعاصيهم ويظنون أنهم بالحج قد أصبحوا من الأتقياء.

حَجَجْتَ فليت أنَّك لا تحجُّ ... فمنك الركنُ والحرمان ضَجُّوا
ذهبتَ بألفِ قافلةٍ ذنوباً ... فَأُبْتَ وألفُ قافلةٍ وخُرْجُ
أترجو يا أخا الآثام إمَّا ... حججتَ وقال عنك الناس حَجُّ
ستصبح مؤمناً ورعاً تقيّاً ... بعيدٌ عنك ما تهوى وترجو
طريق الخلد شائكة فَدَعْها ... لمن عفَّت يدٌ لهُمُ وفَرْجُ
ومن صانوا اللسان فلم يسبُّوا ... بلا سببٍ ويغتابوا ويهجوا
ومن صلُّوا فُروضهمُ وصاموا ... ومن لهم الهدى والخير نهجُ
ومن بهمُ المساجد في الدياجي ... بأورادٍ وأذكارٍ تعجُّ
ومن زهدوا بدنيا الناس حقاً ... ومن لله لا للناس حجوا
ومن لم يُلْهِهِمْ وترٌ وكأسٌ ... بدنياهم وغانيةٌ وغُنجُ
فمن لم يعبد الباري بصدقٍ ... بحامية الجحيم غداً يُزجُّ

أبوجعفر يبادر بالحج

كان سبب إحرام أبي جعفر المنصور من مدينة السلام، ، أنه نام ليلةً فانتبه فزعاً، ثم عاود النوم فانتبه فزعاً، ثم راجع النوم فانتبه فزعاً، فقال: ياربيع ـ حاجبه ـ قال: لبيك ياأمير المؤمنين. قال: لقد رأيت في منامي عجباً. قال: ما رأيت، جعلني الله فداك؟ قال: رأيت كأن آتياً أتاني في منامي، فهينم بشيء لم أفهمه، فانتبهت فزعاً، ثم عاودت النوم، فعاودني يقول ذلك الشيء، ثم عاودني بقوله، حتى فهمته وحفظته، وهو:

كأني بهذا القصر قد باد أهلُهُ وعُـرِّي منـه أهلُـه ومنـازلُـه
وصار رئيسُ القوم من بعد بهجةٍ إلى جَدَث يبنى عليه جنادِلُه

وما أحسبني يا ربيع إلاَّ وقد حانت وفاتي، وحضر أجلي، وما لي غيرُ ربي، قم فاجعل لي غسلاً، ففعلت، فقام فاغتسل وصلى ركعتين، وقال: أنا عازم على الحج. فهيأنا له آلة الحج، فخرج وخرجنا حتى انتهى إلى الكوفة، فنزل النجف، فأقام أياماً، ثم أمر بالرحيل، فتقدمت نوابه وجنده، وبقيت أنا وهو في القصر، فقال لي: ياربيع جئني بفحمة من المطبخ، وقال لي: اخرج فكن مع دابتي إلى أن أخرج، فلما خرج وركب، رجعت إلى المكان كأني أطلب شيئاً، فوجدته قد كتب على الحائط بالفحمة:

المــرء يهــوى أن يعيــش ... وطــول عمــرٍ قــد يضــرُّه
تفنــى بشــاشتــه ويبقــى ... بعــد حلــو العيــش مــرُّه
وَتُصَــرِّف الأيــامُ حتــى ... مــا يــرى شيئــاً يســرُّه
كم شامت بي إن هلكتُ ... وقــــائــــل لله درُّه

وقد مات أبوجعفر المنصور في رحلته هذه حينما وصل بئر ميمون وكان محرماً فدفن مكشوف الوجه وذلك لستٍّ خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثمانية أيام رحمه الله وغفر له.

ما أطيب العيش لولا أنه فاني ... تَبلَى النفوسُ ولا يبلى الجديدانِ
قدكنتُ في غرَّةٍ حتى إذا انقشعتْ ... أبقت تباريح لا تنفك تغشاني
كأنني لم أَقُدْ شعواءَ جافلةً ... ولم أَبِتْ بين داراتٍ ونُدْمان
ولم أَقُمْ في مقامات وأندية ... شتَّى الهوى غيررعديد ولا واني
فاليوم أصبحتُ لاسيفي بمنصلتٍ ... على العدو ولا قوسي بِمِرْنان
لا أَذْكرُ اللهو إلا أن تُذكِّرني ... ورقاءُ تدعو هديلاً بين أغصان
وكان يحزنني شيبي فصرت أرى ... أن الذي بعده أولى بِإِحزاني
وهوَّن الأمر عندي أن كل فتى ... وإن تَمَلّأَ من ماء الصِّبا فَانِي

الجديدان: الليل والنهار. شعواء جافلة: فرقة حربية منتشرة جارفة.

المعصوم يبتسم في الحج

حج ﷺ وكان معه في الرحلة رفيقه وصديقه: أبوبكر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبوبكر ينظر أن يطلع عليه غلامه فطلع عليه وليس معه بعيره.

فقال: أين بعيرك؟

قال: أضللته البارحة؟

فقال أبوبكر: بعير واحد تُضلُّه؟! فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول: «**انظروا إلى هذا المحرم وما يصنع**».

صلى الله على النبي المعصوم ورضي عن صاحبه، وكيف لو رأى ما يفعله كثير من المسلمين اليوم مع عمالهم وخدمهم في الحج، وبجوار بيت الله ولأسباب لا تذكر أحياناً، كيف لو رأى معاملة كثير من الناس لمن يعملون تحت أيديهم من ضرب، وسبٍّ، وشتم، وتسفيه، وكيف لو رأى معاملة كثير من النساء للخادمات تلك المعاملة التي ليس فيها من الرحمة ولا الاحترام ولا روح الإِسلام شيء.

زين العابدين في الطواف

يدخل هشام بن عبدالملك وكان وليَّ عهد المسلمين وأبوه الخليفة، يدخل الحرم ليطوف بالبيت ومعه موكبه الباهر، وحرسه الساهر.

يدخل فإذا بالطواف يَكْتظُّ ويموج بالناس، وإذا بهم يتدافعون جميعاً ليلتفوا حول رجل من الطائفين، وتراهم يمدون أعناقهم بلهفة وشوق كل منهم يريد أن يرى طلعته الناصعة.

هنا يتعجب الأمير فينظر وإذا به رجل يتلألأ وجهه كالبدر وبيده خيزران، فيزيد عجبه من تدافع الناس واقتتالهم على رؤيته والسلام عليه، بينما لم يلتفتوا له ولم يأبهوا بمجيئه وهو ابن الخليفة!!

لم يستطع هشام استلام الحجر الأسود، فجيء له بكرسي فجلس عليه ينتظر انفراج الزحام. هنا يتقدم أحد حاشية الخليفة من أهل الشام قائلاً: أيها الأمير من هذ الرجل؟

فيجيبه الأمير وعلامات الاستغراب والاستفهام والتعجب قد علت وجهه القمحيّ: لا أدري لا أعرفه من هذا؟؟!!

وكان الشاعر الأموي (الفرزدق) يقف عن قرب ويسمع هذا الحوار فهنا تتحرك مشاعره وتلتهب عواطفه وتنقدح قريحته الشعرية، فيقفز أمام الخليفة في قوة وثبات متغنياً بهذه الأبيات

المرتجلة التي أوحاها له هذا الموقف، فكان مما قال:[١]

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ
هـذا ابـن خيـر عبـاد الله كلِّهـم ... هذا التَّقي النَّقي الطاهر العلمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجـدِّه أنبيـاء الله قـد ختمـوا
وليس قولك من هذا بضائره ... العُرْبُ تعرف من أنكرتَ والعجم
سهل الخليقة لا تُخشى بوادره ... يزينه اثنان: حسنُ الخلق والشيمُ
ما قال لا قطّ إلا في تشهُّده ... لـولا التشهـد كـانـت لاءهُ نَعـم
إذا رأتـه قـريـش قـال قـائلهـا ... إلـى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
يُغْضِي حياءً، ويُغضَىٰ من مهابته ... فمـا يُكلَّـمُ إلا حيـن يبتسـم
بكفـه خيـزرانٌ ريحـه عَبِـقٌ ... من كف أروع في عِرنينِه شمَمُ

من هو يا ترى؟ ذلك هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

(١) هذه القصيدة تنسبها كتب الأدب للفرزدق ولكن كثيراً من الباحثين يؤكدون أنها ليست له بل هي لشاعر آخر معاصر له اسمه: الحزين الكناني.

القائد الأعلى يلقي خطبة

أيها الأحبة المؤمنون في أنحاء الدنيا أنتقل بكم الآن إلى صعيد عرفات إلى ذلك المشهد الرهيب، والموقف المهيب، إلى حيث يقف موكب محمد بن عبدالله ﷺ القائد الأعلى للأمة المسلمة، أنتقل بكم في زحمة الأحداث الإيمانية الخلّابة لأنقل لكم مقاطع نورانية من خطبته ﷺ أنقلها لكم حيّة على نسمات المحبّة لتصل إلى القلوب مباشرة. هنا رَكِبَ ﷺ على ناقته القصواء والآلاف المؤلفة تنظر إليه وتشرئب الأعناق إلى حديثه ﷺ فيفتتح خطبته العصماء، تلك الدرّة المضيئة على جبين الزمان، وذلك التاج المرصَّع باللآلىء على هام الدهر، وتلك الحلّة القشيبة على متن الدنيا.

وكان مما قاله ﷺ في تلك الخطبة العظيمة التي أعلن فيها احترام الإنسان وإعلان حقوقه وحريّته والنهي عن الظلم والاهتمام بالمرأة ووجوب القيام بحقوقها: «**إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع...**
واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله...
وقد تركت فيكم ما لم تضلوا بعدي إن اعتصمتم به: كتاب الله...» الخ. [رواه مسلم]

الجبل

من وحي أم القرى «مكة المكرمة»[(١)].

أنَّى أسير يَضُمُّني الجبل ... فكأنني في الصخر أرْتحلُ
من كل زاويةٍ مَلاَمِحُهُ ... تبدو وفي الأجْواء تنتقلُ
فكأنه عينُ الوجود إلى ... قلْب الخفايا لمْحُها يَصلُ
حَمَلَ العُصُورَ الشمَّ كاهلُه ... وهو الفتيُّ وليس يكتهلُ
مُتَجهِّمٌ جَرْداءُ قِمّتُهُ ... لكنَّه بالخير يشتعلُ
مُدَّتْ إلى الغيمات راحتهُ ... فإذا بجرْح الكون ينْدملُ
وإذا العوالم من بحيرته ... يُسْقَوْن فيْض العزِّ إذْ نهلوا
قَدَمُ الرَّضيع تهزُّ جبهتهُ ... فإذا به للطفل يمتثلُ
وإذا بعين الحبِّ مشرقةٌ ... والأمُّ يَهْجُر قلْبَها الوجلُ
وإذا الطيور على مباسمها ... تضْوي الأغاني وهي ترتجلُ
وإذا الوجود الطفل تحضنُهُ ... أم القرى ويكبِّر الجَبَلُ
وحراء نبْعٌ في تَمَاوُجِهِ ... الأرض بالعلياء تتَّصلُ
صخْر ومنْه تفجَّرتْ شهبٌ ... ولها بكل منارةٍ شُعَلُ
اقرأ تعالى الله قائلها ... فإذا الجبال الصمُّ تبتهلُ

---

(١) مقطع من قصيدة للدكتور صابر عبدالدايم.

أحد الحجاج يبكي من خشية الله

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾

يقول ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى. . .».

هذا بهيم العجلي وكان من الحجاج العباد البكائين ترافق في سفره مع رجل تاجر موسر وسافرا للحج فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على صدره، ثم قطرت على الأرض، وقال: ذكرت بهذه الرحلة الرحلة إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغص عليه سفره معه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء الرجل الذي رافق بينهما إليه لِيَسِّلم عليهما فبدأ بالتاجر فسلم عليه، وسأله عن حاله مع بهيم فقال له: والله ما ظنت أن في هذا الخلق مثله، كان والله يتفضل عليَّ في النفقة وهو معسر وأنا موسر ويتفضل عليَّ في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر، فسأله عمَّا كان يكرهه من كثرة بكائه فقال: والله ألفَت ذلك البكاء وأُشرب حبه قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذى بنا الرفقة ثم ألفوا ذلك فجعلواإذا سمعونا نبكي بكوا ويقول بعضهم لبعض: ماالذي جعلهما أولى بالبكاء منا والمصير واحد، فجعلوا والله يبكون ونبكي، ثم خرج من عنده فدخل على بهيم فسلّم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب، كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن سريع الدمعة، متحمل هفوات الرفيق، فجزاك الله عني خيراً.

الـــوداع

ما أشق هذه الكلمة على النفوس، وما أشد حرارتها في الأفئدة، إنها الساعة التي تفترق فيها القلوب المتحابة وينقطع معها حبل الوصل، وأيام الأنس وليالي الألفة.

ساعة الوداع هي الساعة التي لا تُنسى، واللوعةُ التي لا تَبلى، والحرقة التي لا تبرد، نارٌ تُلهب الأحشاء، ودموعٌ تُحرق الوجنات، وعيونٌ تنثر العبرات.

تبدَّت لنا مذعورة من خبائها ... وناظرها باللؤلؤ الرطب لامعُ
أشارت بأطراف البنان وَوَدَّعتْ ... وأومتْ بعينيها متى أنت راجعُ؟
فقلت لها والله ما من مسافرٍ ... يسير ويدري ما به اللهُ صانعُ
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها ... فسالت من الطرف الكحيل المدامعُ
وقالت إلهي كن عليه خليفةً ... فيارَبِّ ما خابتْ لديك الودائعُ

ساعة الوداع أمضى من السيف حسماً، وأوقع من الحُمّى ألماً، إنها مُفرقة الأصحاب، ومبعثرة الأحباب، فيها تسخو الدموع، وتجود الجفون.

أوَدِّعكم والنفس بعد مَشُوقةٌ ... وقلبي من حرِّ الجوى يَتَقَطَّعُ

ساعة الوداع بكى فيها الشجعان، وضعف أمامها الأقوياء، وانهار لهولها الأشداء.

مَدَدتُ إلى التوديع كفاً ضعيفة   وأخرىٰ على الرمضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا آخر العهد منكمو   ولا كان ذا التوديع آخر زادي

أخي الحاج فكيف بمن يودع بيت رب العالمين؟

وكيف بمن سيرحل ويترك وراءه الحرم، والبيت، والمقام، والركن، وزمزم، والطواف، والمشاعر.

قل لي بالله عليك كيف بمن يودعها بعد أن عَمر بها قلبه، وأنِسَ وهو يناجي ربه، ولكن نسأل الله أن يعيدك إليها أعواماً مديدة وأزمنة عديدة على طاعة الله وفي رضى الله، ومن كُتِب عليه أنه لن يراها بعد اليوم فنسأل الله أن يجعل خاتمته إلى الجنة في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه   هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ
ما أنصفتك دموعي وهي دامية   ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ

قال أحد الشعراء يصف اللحظات الأخيرة في الحج ويصف الأنس والسرور الذي يملأ قلب الإنسان بعد أن أدَّى طاعته، ثم ركب راحلته، ووجّه مسيرته إلى أهله وأبناء عشيرته:

ولما قضينا من منىً كل حاجةٍ   ومسح بالأركان من هو ماسح
وسارت على دُهْم المهاري رحالنا   ولم يعرف الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

لهيب الغرام إلى البلد الحرام

شاعرٌ مُبدع من أهل الأحساء هو الشيخ عبدالله بن علي آل عبدالقادر، توفي عام ١٣٤٤هـ رحمه الله كتب هذه القصيدة إلى صديق له هَاجَرَ إلى مكة ونزل بها. قصيدة يحضه بها على الإقامة بالبلد الحرام والمجاهدة والصبر، ويروي فيها شدَّة تعلقه بالبيت الحرام، واشتياقه له، وإليك بعض أبياتها:

خيالٌ سرى لي من بلادٍ بعيدةٍ ... لشدِّ الأواخي والعهود القديمةِ

مُجاوِرُ قَفْرٍ مالهُ مِن مُجاوِرٍ ... سوَى نفسِهِ أَصْغَى إليْهَا وأَصْغَتِ

متى يضْحكِ البرقُ الحجازيُّ يَنْثَنِي ... على كبدٍ لولاَ الهوَى لم تُفَتَّتِ

نسيمَ الصَّبَا عرِّجْ فهلْ فيكَ راحةٌ ... بتبريدِ أنفاسي وتنْفيسِ كُربتي

لقدْ طالَ يا سعدُ انتظاري فعُجْ بِنَا ... إلى كلِّ شِبهٍ من أصاريم وَجْرَةٍ[1]

وفي بطْنِ نَعْمانٍ بمجْتمعِ الهنَا ... قِبابٌ على أعْتابِ كلِّ ضَنِينَةٍ[2]

كَلَفْتُ بهَا حُمْراً تلوحُ كأنما ... عليهَا أراقَ البَيْنُ ماءَ شَبيبَتِي

مطامحُ أنظاري مسارحُ فكْرَتي ... مدارجُ أوْهَامِي معَارِجُ همتي

أيَا حسرَتا ضَاعَ الزَّمانُ ولم أفُزْ ... بطيب اللِّقا منكُمْ أُهيْلَ موَدَّتي

خَلِيلَيَّ حُطَّا عن قَلُوصِيَ رَحْلَهَا ... إذا فصَلَتْ مِن ذِي طُوَى والثَّنِيَّةِ[3]

---

(١) وجرة: مكان.

(٢) بطن نعمان: وادٍ بين مكة والطائف.

(٣) القلوص: الناقة السريعة النجيبة.

وفاضتْ على البطحاءِ من أرْض مكةٍ وألقتْ جِراناً بالهنَا والمسرَّةِ[١]
وقولاَ لها: يا ناقُ ما شئْتِ فانْعَمِي فلنْ تَبْأَسِي طولَ الحياةِ برحْلَةِ
فيـا بلْـدَةَ الله التـي عـزَّ شـأْنُهـا ومَن تحتها سَوَّى مِهادَ البسيطةِ
هي الدَّارُ لا شامٌ ولا يمنٌ ولاَ مرابعُ هَجْرٍ في أقاليمَ سبْعَةِ
بهَا كعْبَةُ الله التي كانَ حَوْلَهَا مطـافٌ لأمْـلاكٍ وإنْـسٍ وجنَّـةِ
إذا الملكُ الجبَّارُ ذو الشَّانِ رامَها تداعتْ عروشُ المُلْكِ مِنْهُ وثُلَّتِ[٢]
وفيهَـا مقـامٌ للخليـلِ وعنـدَهُ مصلًّى لأهلِ الله من كل مخبتِ[٣]
وفي ساحةٍ بين الحطيم وزمْزم مَعـاهـدُ لـذَّاتٍ مشـاهـدُ زينـةِ
ألا ليْت لي من ماءِ زَمْزَمَ بَلَّةً بها بُرْءُ عِلاّتي وتبريدُ غُلَّتي
صدَىً لم يكُنْ إلاَّ إلى موْرِدِ اللِّقا وكمْ ببلادِي مِن نِطافٍ وَغَمْرَةِ[٤]
ويا حبَّذا ما بيْنَ مرْوَةَ وَالصَّفَا مساعي كرامٍ بالوفَا والمُرُوَّةِ
لَئِن أَزْلَفَتْنِي صوبَ مُزْدَلفَاتِهِمْ عـوارفُ بـرٍّ مِـن عـواطِـف بَـرَّةِ
فقد أشعرتْ قلبي على المَشْعَرِ الَّذِي عليْـه شِعـارٌ مـن جـلالٍ وهيْبَـةِ
فهـذا وصلَّـىٰ الله ربِّـي صـلاَتَـهُ عَلَى المُصطفى إنسانِ عينِ البصيرَةِ
نبيِّ الهُدَى بدْرِ الدُّجَى سيِّدِ الوَرَى محمَّـدٍ المُـوفِـي نظَـامَ النُّبُـوَّةِ

---

(١) البطحاء: الأرض التي في مسيل السيل والمقصود بها هنا موضع بمكة المكرمة. الجران من البعير: مقدم عنقه.
(٢) ثلت: هدمت. يقصد هنا: أيَّ ملك من ملوك الأرض يريد الاعتداء عليها فإنه يخسر ويتهدم ملكه مثل ما حدث لأصحاب الفيل.
(٣) أخبت إلى الله: اطمأن إليه تعالى وتخشع أمامه.
(٤) الصدى: العطش، نطاف: ماء قليل، غمرة: ماء كثير يغمر.

ثم ماذا بعد

والآن يا أخي الحبيب، يا من أقبلت طاعة للسميع المجيب ودعوته صادقاً من قلبك وكلّك أمل في أن يستجيب لك لأنه أمرك بالدعاء وأخبرك أنه قريب، فمن صدق مع الله فوالله لن يخسر ولن يخيب.

أخي الحبيب يا ضيف الرحمن.. ويا حبيب الديان.. ويا صاحب الإيمان.. ويا مترنماً بآيات القرآن.. وسائراً على منهج أشرف إنسان، أناديك بعد أن تحققت لك الأمنية، وتمت العطية، وخرجت من بعد صفحاتك السوداء بصفحة بيضاء نقية، ناصعة بَهيَّة وأعمال مرضية، وروح مرتفعة المعنوية، فيا لها من منحة قدسية، وعطية ربانية، وسياحة روحانية، أناديك بعد أن ذقت حلاوة الطاعة، ولذة الإيمان والأنس بالواحد الديان، أناديك بعد أن عوَّدت النفس على جميل الصفات، والمحافظة على الصلوات، والبعد عن السيئات، والمسارعة إلى الخيرات، والانطراح بين يدي بديع الأرض والسموات، أنادي فيك فطرتك وإيمانك وعاطفتك وإسلامك.

وهل جاء بك من أقصى الدنيا إلاَّ الإيمان بالله؟

وهل قادك ـ تاركاً وراءك الأهل والأبناء، والدنيا والأعباء ـ إلاَّ

إسلامك لله.

وهل أتعبت نفسك وأسهرت ليلك وأظمأت نهارك وأنفقت درهمك ودينارك وجنيهك، وتركت أهلك وعيالك ومصالحك وأعمالك.

هل فعلت ذلك كله إلاَّ طاعة لله وطمعاً في جنة الله؟

أبشر والله أبشر والله يا عبدالله، والله لقد أقبلت على رب رحيم وإلـٰه كريم ومعبود عظيم، ورحمـٰن رحيم، أنت أقبلت على العزيز الغفور وطرقت باب الملك الشكور وانطرحت بين يدي أرحم الراحمين الذي وسعت رحمته كل شيء، سبحانه ما أرحمه وما أعظمه.

في الحديث الصحيح الذي في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ قال: «**إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمةً واحدة بين الجن والإِنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**».

فقدت امرأة ابناً لها في معركة من المعارك، فجاءت تبحث عنه بين السبي، وقلبها يتقطع ألماً وعينها تسكب الدموع وفؤادها يكاد ينخلع، وفجأة وجدت وليدها فكادت تطير به فرحاً فأخذته وقبّلته وضمته إلى صدرها وقد ملأت الرحمة قلبها والصحابة ينظرون ويتعجبون فيستغل ﷺ هذا الموقف ليزرع في نفوسهم قضية عظيمة

ويثلج صدورهم ببشرى رائعة تعدل الدنيا وما فيها ليملأ قلوبهم بحب الله وجلال الله والتعلق بالله فقال لهم: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار**»؟

قالوا: يارسول الله، لا والله! وهي تقدر على ألا تطرحه.

فقال ﷺ تلك المقولة الرائعة التي نزلت على القلوب برداً وسلاماً وملأت النفوس أنساً وبهجة وإقداماً.

قال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»!!!

فأبشر يا ضيف الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء لكن لا تنسى مقتضيات الحصول على هذه الرحمة. قال ربك: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فمن كان في ضيافة هذا الرب الرحيم الكريم فيا بشراه ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

ويقول تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبدي وعزتي وجلالي لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني لغفرت لك ولا أبالي**» سبحانك ما أعظمك وأرحمك، ولكنه استغفار الندم واستغفار الرجوع.

أعود أخي الكريم لأناديك وأهمس في أذنك التي طربت

لأصوات التهليل والتكبير والاستغفار والتبجيل فما هزها نغم أروع من ذلك، ولا طربت لنبرة أجمل من ذلك، أعود لأناديك فأقول: الحذر ثم الحذر ثم الحذر من أن تهدم ما بنيت، وتشتّت ما جمعت، وتبدد ما حصلت، فتنتكس بعد الاهتداء، وترتكس بعد النقاء، وتخلع ثوب الطاعة والصفاء، مرتدياً بدلاً منه ثوب المعصية والتعاسة والشقاء، وتسوِّد الصفحات بأعمال شوهاء، فتكدر صفوها وتطمس نورها بعد أن كانت بيضاء. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾.

وسلام الله عليك ورحمته وبركاته وإلى اللقاء.

خطباء عظماء في الحج

إليك أخي الحاج مقتطفات سريعة من بعض الخطب المتعلقة بالحج لبعض عظماء الإسلام وزعمائه، أبدؤها بثلاث خطب لعظيم العظماء، وزعيم الزعماء، وإمام الأتقياء والخطباء والفصحاء؛ محمد بن عبدالله ﷺ.

خطب المصطفى ﷺ

هذه خطبة من خطبه ﷺ في الحث على الحج.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**» فقال رجل: أكل عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت: نعم لوجبت. ولما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**».

المصطفى يخطب في الحجاج

خطب ﷺ يوم عرفة خطبة بليغة عظيمة مؤثرة وروي أنه خطب

خطبتين بمنى، ومن خطبته يوم عرفة:

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع... واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغْتَ ونصحتَ وأدَّيتَ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات».

خطبة يوم النحر

وخطب ﷺ بمنى يوم النحر فقال:

«يا أيها الناس أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأيّ بلد هذا؟ قالوا: بلدٌ حرام. قال: فأي شهر هذا؟قالوا: شهرٌ حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. فأعادها مراراً ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته ـ فليبلغ الشاهد، الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

خطبة علي بن أبي طالب

إن الله فرض عليكم حجّ بيته الحرام الذي جعله قِبلة للأنام يردونه ورد الأنعام ويألهون إليه ولوه الحمام. جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لِعزَّتِه. واختار من خلقه سُمَّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته، المُطيفين بعرشه يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته. جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائذين حرماً، فرض حجه، وأوجب حقه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ .

خطبة ابن الزبير

قال محمد بن عبدالله الثقفي: شهدتُّ خطبة ابن الزبير بالموسم، خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم، فلبّى بأحسن تلبيةٍ سمعتها قَطّ، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم جئتم من آفاق شتّى وفوداً إلى الله عز وجل، فحق على الله أن يكرم وَفْدَه، فمن كان منكم يطلب ما عند الله، فإن طالب ما عند الله لا يخيب، فَصَدِّقوا قولكم بفعل، فإن ملاك القول الفعل، والنية النية، والقلوب القلوب، الله الله في أيامكم هذه، فإنها أيام تغفر فيها الذنوب، جئتم من آفاق شتى في غير تجارة ولا طلب مال، ولا دنيا ترجونها هاهنا، ثم لبى ولبى الناس، فما رأيت باكياً أكثر من يومئذ.

خطبة أبي جعفر المنصور

خطب أبوجعفر المنصور بمكة فقال: أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وتبصيره، وأنا خازنه على فيئه أعمل فيه بمشيئته وأَقْسِمهُ بإرادته، وأعطيه بإذنه، قد جعلني عليه قفْلاً، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم وقَسْمِ أرزقاكم فَتَحَني، وإذا شاء أن يقفلني عليها أقفلني. فارغبوا إلى الله واسألوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه، إذ يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ اسألوه أن يوفقني للصواب والرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، ويمنحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم.

خطبة الخليفة العباسي المأمون

وهذه خطبة للخليفة العباسي المأمون ـ رحمه الله ـ قالها في يوم الأضحى بعد التكبير:

إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعَظَّم حرمته، ووفق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله، وفدى فيه من الذبح نبيه، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومتقدم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام. يوم الحج الأكبر، يوم دعا الله إلى مشهده وأتَىٰ القرآن بتعظيمه، قال الله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ الآيات، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من طيب أموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. عَظُم قدر الدارين وارتفع جزاء العملين وطالت مدة الفريقين الله الله! فوالله إنه الجد لا اللعب، وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت، والبعث والميزان والحساب، والقصاص والصراط ثم العقاب والثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوىٰ يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

حجاج يشتاقون إلى أوطانهم

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسحُ
وشدت على دهم المهاري رحالنا ... ولم يعرف الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

وهكذا بعد أن يفرح الحجاج بأداء النسك، وتمتلىء قلوبهم بروعة الزمان والمكان، وتلهج ألسنتهم بالثناء على الواحد الديان، هكذا وبعد أن يؤمِّلوا في الغفران، والعفو عما سلف وكان، وتطيب أنفسهم بأداء خامس الأركان، بعد ذلك يبدأ لاعج الحنين إلى الأوطان يهيج في الأفئدة، ويبدأ الشوق إلى الأهل والأحبة يلهب الضمائر، ويستولي على المشاعر.

استأذن أشجع السلمي ـ وهو أحد فحول الشعراء ـ هارون الرشيد في الحج، فأذن له، فلما حجَّ ورجع فصار عند بئر ميمون قال:

ألا ليت حياً بالعراق عهدتهم ... ذوي غبطة في عيشهم وليانِ
يرون دموعي حين يشتمل الدجا ... عليَّ وما ألقى من الحدثان
أمن بئر ميمونٍ تَحِنُّ صبابة ... إلى أهل بغداد وتلك أماني
بعدت وبيت الله عمَّن تحبه ... هواك عراقي وأنت يماني
إذا ذكرت بغداد لي فكأنما ... تحرك في صدري شباه سنان

وحج موسى بن عبدالملك، فلما رجع فصار بالثعلبية اشتد شوقه فقال:

لمـــــا وردت الثعلبيـــ ـــة عند مجتمع الرفـاقِ
وشممت من برد الحجـ ـــاز نسيم أرواح العـراقِ
أيقنـت لـي ولمـن هـويـ ـــت بـألفـة بعـد افتـراقِ
مـــا بيننـــا إلاَّ تصـــرم هـــذه السبــع البــواقــيِ
حتـــى يطـــول حـــديثنـــا بصنـوف مـا كنـا نـلاقـي

واجب الضيف الكريم
على أخيه المقيم

واجب الضيف الكريم على أخيه المقيم

هذه رسالة أبعث بها إلى كل أخ أنعم عليه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بمجاورة هذا البلد الحرام أبعث بها لكل من وفقه الله وامتن عليه بالعيش في هذه الأرجاء الزكية وعلى هذه التربة النقية والديار الآمنة المرضية. إن السكنى في هذا البلد الحرام والحياة على مقربة من زمزم والركن والمقام؛ هبة جليلة من الملك العلاّم.

يقول الله تعالى ممتناً على ساكني الحرم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾. يا للروعة ويا للعظمة ويا للإرادة الربانية والمنحة الإلهية ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وكفى بها نعمة وتأمل من حُرم هذه النعمة وهو ما تصوره الآية الأخرى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أنت يا من تعيش على ثرى مكة تعلم يقيناً أنها بلد قاحل مجدب غير ذي زرع ولكن في الوقت نفسه تتلذذ بكل فاكهة على وجه الأرض تحقيقاً لتلك المنة ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ فهذه ثمار يانعة وفواكه متنوعة تجبىٰ إليك في هذا البلد الآمن من شتى أنحاء الدنيا ولقد تعجبت والله في يوم من الأيام وأنا أتأمل أنواع الفواكه والثمار والخضروات التي ننعم بها

في هذا البلد الآمن، وقد جُبيت إلينا من شتّىٰ أنحاء الأرض؛ فإذا بها ثمار من أمريكا، وأخرى من أوربا، وثالثة من أندونيسيا، وصنف من الهند، ونوع من المغرب، وثمرة من مصر، وفاكهة من أفريقيا، وشكل من بلاد فارس، وآخر من بلاد الشام... الخ.

كنت أتأمل هذه الأنواع، وقد اتسم أمام ناظري ذلك التعبير الخلّاب وتلك المنة المتحققة، والعطية الجلية ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ياربِّ أطعمتنا من كل فاكهة تجبىٰ إلينا بلا كدٍّ ولا تعب
وأُنْسُنَا بجوار البيت منزلة أغلى من الدروالياقوت والذهب

يا من سكنت البلد الأمين؛ مِنْ شكر هذه النعمة عليك أن تكرم ضيوف رب العالمين فيا بشرى لمن أكرم ضيف الرحمن.

أرى أن هناك بعض الواجبات علينا نحن سكان البلد الحرام تجاه ضيوف الرحمن ومنها:

(١) إكرامهم:

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه الغزال المقنَّعُ
أحدِّثه إن الحديث من القِرى وتعلم نفسي أنه سوف يَهْجَعُ

إكرام الجائع وضيافة المسافر المنقطع، وسقايتهم وإقالة عثراتهم، فهم عباد الرحمن وضيوف الملك الديان، وإخوانك في الإيمان وفي الحديث: «**إن الله عز وجل يقول للعبد يوم القيامة: يا عبدي جعت فلم تطعمني. فيقول العبد: وكيف أطعمك وأنت الله**

رب العالمين؟ فيقول له: لقد استطعمك عبدي فلان بن فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا عبدي استسقيتك فلم تسقني فيقول العبد: وكيف أسقيك وأنت الله رب العالمين؟ فيقول: استسقاك عبدي فلان بن فلان فلم تسقه أماعلمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي. . .»[١].

(٢) احترامهم وتقديرهم والبشاشة في وجوههم: فإن المسافر الأشعث الأغبر أولى الناس بالاحترام، ولذلك يقول تعالى عن عباده الشعث الغبر: «يا ملائكتي انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً أشهدكم أني قد غفرت لهم»[٢].

(٣) ينبغي أن يظهر على تصرفاتنا روح الأخوة والتعاون والمودة.

(٤) أن نكون قدوة حسنة لهم: فهم رسل إلى من ورائهم من الناس. وهذه قضية مهمة.

إن المسلمين في أنحاء الدنيا ينظرون إلى أهل هذه الديار نظرة خاصة ويحترمونهم احتراماً فائقاً ويرون أنهم قدوة يُحتذىٰ بهم فالواجب علينا أن نظهر أمامهم في أحسن مظهر وأن نعلم أن تصرفاتنا محسوبة علينا.

(٥) الصبر على أذاهم وتحمل أخطائهم.

(٦) إرشادهم وتوجيههم ودعوتهم إلى الخير.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٥) وقال الهيثمي (٣/ ٢٥٤): (رجاله رجال الصحيح).

وتلك قضية مهمة وعملٌ رائد، وخلق نبيل.

فيجب إرشادهم فيما يتعلق بأمور الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوتهم إلى الله بالحسنى فإنه لا يجدر بنا أن يأتي أخونا المسلم ويعيش بيننا أياماً ونحن نرى عنده أخطاء عظيمة سواء فيما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو الأحكام.

لا يجدر بنا أن يأتي ويعود وهو يحمل أخطاءه دون ناصح أو معلم.

ومما يتعلق بهذا الموضوع (إرشاد الحاج) أن نرشده إلى الطريقة الصحيحة للحج.

ومن ذلك هداية الضال عن الطريق وإرشاد الحيران وغير ذلك مما يمكن أن يقدمه المؤمن المقيم لأخيه ضيف الله الكريم.

(٧) **السماحة في البيع والشراء:** يجب علينا مناصحة إخواننا من التجار وأصحاب العقارات بأن يرفقوا بضيوف الرحمن وأن لا يثقلوا كواهلهم ويُشدِّدُوا عليهم بالأسعار الباهظة يجب على التاجر أن ينظر إلى الحاج على أنه فرصة لمساعدته وكسب مودته ودعوته الصالحة له وتيسير أموره والسماحة معه في البيع والشراء إجلالاً لله تعالى لأنهم ضيوفه.

ومن الخطأ أن ينظر التاجر إلى الحاج على أنه فرصة ليخدعه في البضاعة أو يبتز أمواله بالأسعار الغالية.

إن أحدهم يمكث عمره كله وهو يجمع القرش مع القرش

والريال مع الريال ليحج به إلى بيت الله الحرام، فتلك أمنيته في الحياة، يُضيِّق على نفسه، ويحرم أبناءه ويُجوِّع عياله وربما يتحمل أعباء الديون ليتمكن من أداء الحج، ثم يأتي بعض الناس ممن قل إيمانهم فيتعاملون معه بالغش والزيادة، واستخراج المال بشتى الطرق.

أسأل الله تعالى أن لا يكون بيننا أحد من هذا الصنف السيء.

فيا صاحب السيارة، ويا صاحب العمارة، ويا صاحب التجارة، ويا صاحب الطِّوافة: اتقوا الله في عباد الله وكونوا صورة مضيئة لأهل هذه الديار الطيبة. **(ورحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى)**

(٨) **الأخلاق الحسنة**: فإن الأخلاق الحسنة سمة المسلم، وآية المؤمن، وعلامة التقوى، الأخلاق طريق الفلاح، وعنوان الصلاح، وسبيل النجاح. ينبغي علينا أن نعامل إخواننا ضيوف الرحمن معاملة حسنة، وأن نبتعد عن بعض الأمور التي لا تليق بالمسلم: كالتكبر فربما يدخل الشيطان إلى قلب أحدهم فينفخ فيه ويقول هذا من جنس كذا، أو لون كذا، أو بلد كذا، وأنت أعلى منه منزلة وأحسن منه حالاً وأكثر أموالاً فلا يستحق حتى أن تسلم عليه، فليحذر المسلم من هذا، فإن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لم يجد ريح الجنة.

ومن الأخلاق التي يجب الحذر منها: الغلظة في التعامل،

والزجر والقسوة والعنف وغير ذلك، فهي كلها أخلاق رديئة ومعاملات دنيئة، وتصرفات مسيئة «**إن الله يبغض الفاحش البذيء**».

وعلينا أن نتذكر أن ديننا هو دين الخلق الرفيع وأن أكمل المؤمنين إيماناً هو أحسنهم خلقاً كما قال صاحب الخلق العظيم ﷺ. ويقول تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

يقول الشاعر:

أكرم بقوم إذا لاقيتهم عرضاً ... أهدوك من نورهم ما ذَكَّر الباري

هَيْنون لَيْنون أيسار بنو يسرٍ ... صيدٌ بهاليلُ حَفَّاظون للجارِ

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكثار

(٩) **دعوتهم إلى التوحيد**: بعض الحجاج يقدمون من بلاد تكثر فيها مظاهر الشرك والبدع والخرافات والسحر والكهانة، ويكثر فيها الطواف بالقبور والدعاء عند الأولياء والتَّمسُّح بالأضرحة إلى غير ذلك من الشركيات العظيمة فلا يجدر بمن رأى حاجاً يقع في شيء من هذه الذنوب المخيفة أن يتركه دون نصيحة أو تعليم وإلا باء بالإثم العظيم.

(١٠) **يجب على التجار الذين أعطاهم الله من فضله أن يستغلوا هذه الفرصة السانحة مع ضيوف الرحمن**: فيخصص التاجر مبلغاً من المال لشراء بعض الكتيبات الإسلامية النافعة، أو الأشرطة الجيدة فيوزعها على الحجاج إلى غير ذلك مما يمكن تقديمه

للحاج ومساعدته إن كان فقيراً.

وقبل الختام :

تذكر يا أخي المسلم أن إكرام الحجاج وسقايتهم مرتبة رفيعة عالية كان العرب حتى في جاهليتهم يفاخرون ويتغنّون بها حتى إن الله تعالى أنكر عليهم إذ ظنوا أن سقاية الحاج وإكرامه أفضل من الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسير هذه الآية: إنها نزلت في العباس بن عبدالمطلب حين أُسر ببدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج، ونفك العاني.

فلا يجدر بك أخي المسلم أن يكون العربي الجاهلي أكثر كرماً منك ونفعاً للحجاج.

أنموذج للكرم الجاهلي مع الحجاج:

ممن اشتهر بالكرم لعموم الناس ولحجاج البيت على وجه الخصوص في الجاهلية عبدالله بن جدعان الذي قال فيه وفي قومه آل جدعان قال فيهم الشاعر الجاهلي أمية بن أبي الصلت:

لا ينكتون الأرض عند سؤالهم ... لتَطَلُّبِ الحاجات بالعيدانِ

بل يُشرقون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوانِ

وإذا الغريب أقام وَسْطَ رحالهم ... رَدُّوه رَبَّ صواهلٍ وقيانِ

وإذا دعا الداعي ليوم كريهةٍ سدوا شعاع الشمس بالفرسان

وعبدالله بن جدعان كان له جفنةٌ لا يحملها إلاَّ ثمانية من أشداء الرجال.

يضع جفنته في الصباح مكللة بلباب البر ونسيل العسل فإذا وضعها أمر غلمانه ومناديه أن ينادي في الناس بأصوات عالية حتى يجتمعوا على الجفنة فيقول لهم: حيهلاً على الفطور المبارك ثم يضعها في الظهيرة مكللة بثريد بلحم ومرق فينادي فيهم: حيهلاً على الغداء المبارك وهكذا لايزال الناس في طعام وشراب ما أقاموا بمكة. يا له من كرم عظيم حقًّا وجودة متناهية، ولكن ياللأسف إنها لم تكن لله فلذلك لا قيمة لها في ميزان الله تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ يارسول الله ابن جدعان كان يطعم الفقير ويعين على نوائب الحق هل ينفعه ذلك يوم القيامة قال: «**لا إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**». [رواه مسلم]

قال أبوعبيدة معمر بن المثنى: وفد ابن جدعان على كسرى فأكل عنده الفالوذج، فسأل عنه. فقالوا: لباب البر مع العسل. فقال: ابغوني غلاماً يصنعه، فأتوه بغلام، فابتاعه، وقدم به مكة وأمره فصنعه للحجاج، ووضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد الحرام، ثم نادى مناديه: ألا من أراد الفالوذج فليحضر، فحضر الناس.

ومازال إطعام الحاج في الجاهلية وفي الإسلام، وكانت الخلفاء

تقيمه ولا يكلِّفون أحداً من ماله شيئاً، وكان معاوية قد اشترى داراً بمكة، وسمَّاها دار المراجل، وجعل فيها قدوراً، ورسم لها من ماله، وكانت الإبل والغنم تنحر وتطبخ فيها، ويطعم الحاج أيام الموسم، ثم يفعل ذلك في شهر رمضان.

وإن لنا البطحاءَ والمروَ والصَّفا ... وإنَّاولاة البيت ذي الحُجْبِ والحِجْرِ
وإنـا سُقَـاةُ الـوافِـديـنَ لِحَجّهِـمُ ... إلى اللهِ يَرْجُونَ الثَّوابَ مِن الأجْرِ
لَنَـا مَنْهَـلٌ نُـرْوِي بـهِ كُـلَّ وَارِدٍ ... مُقيـم لِحُجَّـاج العَتيـقِ ولِلحَضْـرِ
منَ العَسَلِ الصَّافي يُشَابُ بِزَمْزمٍ ... ومُعْتَصَرٍ يأُتيكَ مِنْ طَيِّبِ العَصْرِ

ألا إن سلعة الله غالية[١]

إن درب الجنانِ ما كان درباً   من حرير أوجلّلته الورودُ
هو بذلٌ وشدّة وعطاءٌ   وإباءٌ وهمَّةٌ وصمودُ
من مشى فيه عاش حرًّا عزيزاً   وَهْو في هذه الحياة السعيدُ
والثواب العظيم في جنة المولى   ففيها يكون الرضى والخلودُ
كلُّ نفس تحظى بما تشتهيهِ   حُورُ عينٍ فيها وطلعٌ نضيدُ
لبنٌ سائغٌ وشهد مصفَّى   ولدى ربك الكريم المزيدُ
والنَّكال النكال والبؤس والذلُّ والأذى والوعيدُ
للذي ما رعىٰ لمولاه عهداً   هُتكتْ جهرةً لديه الحدودُ
وقضى العمر في ضياع ولهوٍ   همُّه نسوةٌ وكأسٌ وعودُ
فَحَياةٌ تعيسةٌ وشقاءٌ   ووُجُوهٌ يوم القيامة سودُ
هل سَتُغني الأموال والجاه يوماً   عن أناس إذا حَوَتْهم لحود
يعقب الفخر والفخامة قبرٌ   مظلم والأنيس في القبر دودُ
ثم يوم الزحام نار تلظَّى   وعلى جسرها المهيب الورودُ
يُبْلس المجرمون ما من شفيع   أين سلطانهم وأين الرصيدُ
يا جواداً نحن المسيئون دوماً   وهو المحسن الغفور الودودُ
اغفر الذنب ربنا واعف عنا   وصْفُك الجودُ والمسيء العبيدُ

---

(١) للمؤلف.

الحج ماشياً على الأقدام

الهمم تتفاوت، والعزائم تختلف، والقدرات تتباين، وإذا عجبتَ فاعجب لأناس امتطوا للحج أقدامهم، وأتعبوا في المسير أجسامهم، أتوا من بلاد بعيدة، وديار سحيقة، مشياً على الأقدام، بل كان بعضهم حافياً، يطئون بأقدامهم عى الأرض الملتهبة فكأنما يضعونها على برد وسلام، ويمشون في وهج الظهيرة وكأنهم في ظلٍ ظليل، لأن ذلك في مرضاة الجليل، ويجتازون الفيافي والصحاري طلباً لمغفرة الباري، فما أقواها من عزيمة وأبعدها من همة.

يُروى أن آدم عليه السلام أول من حج البيت الحرام، وقد حج ماشياً، وقال مجاهد حج إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ماشيين. وقيل أن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ حج خمس عشرة حجة ماشياً على قدميه. وسافر المغيرة بن حكيم الصنعاني من اليمن إلى مكة حاجاً أو معتمراً أكثر من خمسين سفراً ماشياً وكان في أكثرها حافياً محرماً صائماً!!. بل يقال أنه كان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن فيقف يصلي حتى يفرغ من ورده ثم يلحق بالركب متى لحق، فربما لم يلحقهم إلاَّ في آخر النهار.

وهذا سعيد بن وهب كان شاعراً ماجناً كثير القول في الغزل

والخمر وكان يسكن بالبصرة ثم توطن ببغداد وتاب وتعبَّد وندم على ما كان منه ثم أزمع السفر إلى مكة المكرمة للحج ماشياً على قدميه فبلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً وتعب من ذلك فأنشأ يقول:

قَدَميَّ اعْتَوِرا رمْلَ الكثيبِ   واطرُقا الآجنَ من ماء القَليبِ
رُبَّ يوم رُحْتما فيه على   زَهرة الدنيا وفي وادٍ خَصيبِ
وسماعٍ حَسنٍ مِنْ حسَنٍ   صخَب المزهَرِ كالظَبْي الرَّبيبِ
فاحسَبا ذاكَ بهذا واصْبرا   وخُذا من كلّ فنٍ بنصيبِ
إنما أمشي لأنّي مذْنبٌ   فلعل الله يعفو عن ذنوبي

اللّــه

سبحان من لو سجدنا بالعيون له ... على شبا الشوك والمحمِي من الإِبَرِ
لم نبلغ العشر من معشار نعمته ... ولا العشير ولا عشراً من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه ... سبحانه من مليك نافذ القدرِ
سبحان من هو أنسي إن خلوت به ... في جوف ليلي وفي الظلماء والسحرِ
أنت العظيم وأنت الحب يا أملي ... من لي سواك ومن أرجوه يا ذُخري

اللّه : أحاط علمُه بالكائنات، واطّلع على النيات، علم خفيات الأمور، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، علم ما في الضمير، ولا يغيب عنه الفتيل والقطمير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، يبدىء ويعيد، ويُنشيء ويبيد، وهو فعّالٌ لما يريد.

اللّه : لم يخلق الخلق سدىً، لم يتخذ المضلِّين عَضُداً، أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى.

اللّه : ﴿ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾.

الله : الحق ما أنزله، والشرع ما فصّله، السعيد من وفقه واصطفاه، الشقي من حرمه وقلاه، الفائز من أحبه، الخاسر من في النار كبّه، لا يدرك كنهه الخيال، ولا يعجزه السؤال، لا تُغلب جنودُه، ولا تتناقض أحكامه وحدوده. انظر إلى البدر كيف دوّره، انظر إلى الإنسان كيف صوّره، انظر إلى الليل كيف محاه، وانظر إلى الجبل كيف أرساه، أخرج الماء من الصخرة الصماء، قدح النار في الأخضر من الأشجار، دلّ الطفل لثدي أمه، جعل حياة الثعبان في سُمّه، صدق في كلامه، عدلَ في أحكامه، أبدع في صُنعه، غلب على أمره، أحاط عِلمُه، نفد قضاؤه، كَمُل دينُه، تمَّت نعمتُه، عزَّ فحكم، قدِرَ فحلُم، واطّلع فستر، رحم فغفر، أخذ فما أبقى، أعطى فأغنى، دُعي فأجاب، لطيفٌ بالعباد، الحاكم يوم التناد، الباقي فلا يموت، الغني فلا يفتقر، القوي فلا يضعف، العادل فلا يظلم، كم آنس من غُربة، كم كشف من كربة، كم شفىٰ من عليل، كم هدى من ضِلِّيل، كم أصلح من فاسد، كم أهلك من مارد، قدْرٌ عليٌّ، ملك قويٌّ، لطفٌ خفي، فضلٌ جليّ.

حارت الأفكار في قدرته، واضطربت الأفهام في عظمته، وذهلت الأذهان من حكمته، ابتلىٰ أولياءه بأعدائه، وامتحن محبيه بمحاربيه. أعطىٰ قارون حتى ناءت العصبة بمفاتيح الكنوز، وأفقر موسىٰ حتى أكل ورق الشجر، وصب المال على أمية بن خلف حتى عاش في الديباج والحرير، وجوَّع رسوله ﷺ، حتى ربط

الحجر على بطنه، هدى بلالاً وهو عبدٌ حبشي، وأضل أبالهب وهو سيد قرشي.

أغوىٰ فرعون وهدى زوجته، واجتبىٰ لوطاً عليه السلام وأخزى زوجته، واصطفىٰ إبراهيم عليه السلام وأشقى أباه، واجتبىٰ نوحاً عليه السلام وغضب على ابنه.

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ يرسل البرق حتى يخطف الأبصار، يجري السيل حتى يقتلع الأشجار، وينشيء الرعد حتى يجلجل في الخافقين، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وينزل الغيث على من يشاء، ويصرفه عمن يشاء.

يعطي عدوه من الدنيا حتى لا يدري أين يضع المال، ويبتلي وليه بالفقر حتى ينطرح على الرمال ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ شفع نوح عليه السلام لابنه فقال له: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾. واستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه فنهاه، وتوعد رسوله ﷺ المشركين فقال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾.

وقَبِلَ عذر المنافقين فقال له: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ وصلى على عبدالله بن أبيّ فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾. وأراد أن يستغفر للمنافقين فقال: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾.

وشُغل ﷺ عن أعمى فنزل: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ ﴾، وحرص كل الحرص على إسلام عمه، فجاء: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

وأراد أن يفاوض المشركين فأتىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ ﴾.

وهم أن يتألف المشركين بطرد المساكين عن المسلمين، فنزل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾.

نظر إلى أموال الكفار، فأوحى إليه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾، وتلفت إلى ثروات المنافقين فجاءه: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾.

جاء بالتوحيد الخالص وقال له: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

أرسل عيسى ليوحد ربَّه فسأله: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

ذهب موسى عليه السلام ليكلم ربَّه فعبد بنو إسرائيل العجل بعده، وفر يونس عليه السلام من قومه فوقع في بطن الحوت، وخرج أبوجهل ليقتل الرسول ﷺ، فطُرح جيفة في القليب.

يُجري الماء في بقاع حتى تفيض على الجبال، ويسلط القحط على بقاع حتى تعطر فيها الرمال، ويُقَدِّر البرد على جهات حتى تصبح الأرض من الزمهرير جليداً، ويقدر الحر على جهات حتى تقذف الأرض منه لهباً شديداً.

اقرأ القدرة في الشمس الساطعة، والنجوم اللامعة، تجدها في الخمائل والجداول، في الحقول، والسنابل، في الساقية والغدير، في الماء النمير، في الضياء والسناء، في الهواء والظلماء، في الورقة واليرقة.

أول كلمة إلى المعصوم إقرأ، والكون كتاب، والكائنات حروف، والقدرة أقلام، والقارىء أمي، وعنوان الدرس: ﴿ فَٱعْلَمْ

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

سبحان من دلَّ على نفسه بنفسه، سأل الصحابة رضوان الله عليهم عنه: أقريب فيناجىٰ، أم بعيدٌ فينادىٰ، فنزل: ﴿قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾

أطعم، وأسقىٰ، و هدى، وأسدى، وكفىٰ، وآوىٰ، وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ .

ابتلىٰ، وامتحن، وأفقر، وأمرض، وأجاع، وأظمأ، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ .

التعريف: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ .

والوصف: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ .

والجهة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ .

والشأن: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

خطط أعداؤه ودبّروا، وأعدوا فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ .

تشاوروا واحتالوا وتهيأوا فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ .

نهجوا في الكيد وألحوا في الدهاء، وأصروا على المراوغة فقال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ . تعجبوا من المؤمنين، وضحكوا من الصالحين، وسخروا، فأنزل: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ . فتلوا حبال الفتنة، ونسّقوا خيوط المحنة، ونسجوا برد الوقيعة، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ . لمزوا وغمزوا

واستهزأوا، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾.

الله : من الذي أنجى من الكرب، من الذي فرّج الهم، من الذي كشف الغم، من الذي أجاب المضطر، وأنجد المستغيث، وأنقذ الملهوف، ونجّى الغريق، من الذي هدى الضال، ورد الغريب، ونصر المظلوم.

الله : من الذي انطرح على عتبات ربوبيته فقلاه، من الذي جثا على قدم الذل بين يديه فأقصاه، من الذي مرّغ خده على بساط خدمته فرده، من الذي أرغم أنفه لعزته فصده، من الذي جاء بدمعه بين يديه فأعرض عنه، من الذي نكّس رأس المسكنة في حضرته فجفاه، من الذي فزع إليه في المُلِمَّات فخذله، من الذي هرب إليه في الكربات فأهمله، من الذي استنجده في الدواهي فما أنجده، من الذي شكا إليه الحال فما أسعفه، من الذي هتف باسمه في الظلمات فما أجابه، ونوّه بعظمته فما أثابه، من الذي صرخ: «ياألله» فما وجد لطفه، ونادى «يا ألله» فما عرف فضله، ودعىٰ «يا ألله» فحُرم نواله، وهتف «يا ألله» فرد سؤاله.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

الله : إذا اضطرب البحر، وهاج الموج، وهبت الريح العاصف نادى أصحاب السفينة «يا ألله». إذا ضل الحادي في الصحراء،

ومال الركب في البيداء، وحارت القافلة في المسيرة، نادوا «ياألله». إذا وقعت المصيبة، وحلّت النكبة، وجثمت الكارثة؛ نادى المصاب المنكوب «يا ألله». إذا أُوصدت الأبواب، ورُدَّ الطُّلاب، وأسدلت الستور في وجوه السائلين؛ صاحوا «يا ألله». إذا بارت الحيَل، وضاقت السُّبل، وانتهت الآمال، وتَقَطَّعت الحبال، نادوا «يا ألله». إذا ضاقت عليك الأرض بما رحُبت، وضاقت عليك نفسك بما حملت؛ فاهتف «يا ألله». [راجع كتاب الله/ عائض القرني]

قال البارودي ـ رحمه الله ـ:

يانفسُ لاتذهبي يأساً بماكسبتْ ... يـداكِ فـالله ذو مـنٍّ وغفـرانِ

هو الذي جعل الأفـلاك دائـرةً ... وصوَّرالخلقَ من إنْسٍ ومن جانِ

وقدَّرالشمس تجري في منازلها ... والنجم والقمر الساري بحسبان

وأرسل الغيث أرسَالاً برحمته ... وأنبت الأرض من حَبٍّ وريحانِ

سبحانه جل عن وصف يحيط به ... وكيف يدرك وصف الدائمِ الفاني

لقد تفرَّدَ في لاهوت قدرته ... فما لـه أبـدا فـي ملكـه ثـانـي

تبارك الله عما قيل وابتُدِعَتْ ... في ذاته من أضاليل وبهتان

يـاربِّ إنـك ذو مـنٍّ ومغفـرة ... فاستر بعفوك زلاتي وعصياني

ولاتكِلْنِي إلى ما كان من عملي ... فإنه سبب يفضي لحرماني

لا شريك له(١)

عَلَّمتني الحياةُ أنَّ ابتغاءَ اللهِ فَذاً في كُلِّ شأْنٍ وَقَصْدِ

يُبْلِغُ المَرْءَ سُؤْلَهُ ومُنَاهُ   وسِواهُ ـ مهما ادّعىٰ ـ ليس يُجدي

كَمْ تَحَرَّقْتُ مِنْ لَواعجِ وَجْدي   ثمَّ باللهِ كان يَسْكُنُ وَجْدي

ولَكَمْ ضِقْتُ بالتَّوَحُّدِ ذَرْعاً   ثم باللهِ لَذَّ لي العَيْشُ وَحْدي

كَمْ طَلَبْتُ العُلا، وأنْفَقْتُ فيها   عُنفُوان الصِّبا، وغايةَ جُهدي

فاسْتحالَتْ عَليَّ، حتّى طَلبْتُ اللهَ ـ عَبْداً حُرّاً ـ وإذْ هِيَ عِنْدي

كمْ بَذَلْتُ الحَيَاةَ.. أسعىٰ وأسعىٰ   أسْتَحِثّ الخُطا لِمَجْدٍ وَسَعْدِ

دونَ جَدْوىٰ.. حَتّى تَجَلَّي إلٰهي   برِضاهُ، فكانَ سَعْدي وَمَجْدي

أيها التّاجرُ المُراوِغُ دُنْياهُ لِيَصْطادَها بصَفْقَةِ عَقْدِ

دَعْكَ مِنْ وَهْمِها وزُورِ جَداها   فَجَناها مُرٌّ بِقشْرَةِ شَهْدِ

واتَّجِرْ مَرَّةً مَعَ اللهِ تَغْنَمْ   فَوْقَ دُنيا الفَنَاءِ جَنَّةَ خُلْدِ

---

(١) للشاعر عمر بهاء الدين الأميري ـ رحمه الله ـ.

أدعية مأثورة

أخي المسلم: هذه جملة من الأدعية الجامعة المقتبسة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ومن كلام أئمة المسلمين وعلمائهم، فإن أفضل الدعاء والذكر ما كان مأخوذاً من كلام ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ومن سنة نبينا محمد ﷺ، فعليك به في أيام الحج المباركة، لاسيما يوم عرفة، وعند المشعر الحرام بمزدلفة.

اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما تحب ربَّنا وترضى، حمداً لا ينقطع ولا يبيد ولا يفنى، ملء سمواتك وملء أرضك وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، عدد ما حمدك الحامدون، وعدد ما غفل عن ذكرك الغافلون والصلاة والسلام على عبدك ورسولك محمد خاتم أنبيائك ورسلك وخيرتك من خلقك وأمينك على وحيك وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق.

اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أَنَبْت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخّرت وما

أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلاَّ أنت، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

اللهم آتِ نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها.

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلبٍ لا يخشع ومن نفسٍ لا تشبع ومن دعوة لا يُستجاب لها.

اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلاَّ أنت بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم أن تغفر لي وترحمني وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

اللهم لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ربّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً.

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا

تخلف الميعاد.

اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

اللهم اقسم لي من خشيتك ما تحول به بيني وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغني به جنتك ومن اليقين ما تهون به عليَّ مصائب الدنيا، ومتعني بسمعي وبصري وقوتي أبداً ما أبقيتني واجعله الوارث مني، واجعل ثأري على من ظلمني وانصرني على من عاداني ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي ولا إلى النار مصيري واجعل الجنة هي داري ولا تسلط عليَّ بذنوبي من لا يخافك ولا يرحمني برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلاَّ أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون.

اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلاَّ أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أَجُرّه على مسلم.

اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر.

اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن

روعاتي.

اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي.

اللهم أحسن عاقبتي في الأمور كلها وأجرني من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك ومن فجاءة نقمتك ومن جميع سخطك.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني.

اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم.

اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ.

اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قولٍ أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قولٍ أو عمل.

اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء.

اللهم اغفر لي ذنوبي جميعاً واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي

لأحسنها إلاَّ أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلاَّ أنت.

اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيماً لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. اللهم زيّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين سلماً لأوليائك حرباً على أعدائك نحب بحبك من أحبك ونعادي بعداوتك من عاداك أو خالفك.

اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة وأغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك يا حيّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل ومن الجبن والبخل ومن المأثم والمغرم ومن غلبة الدين وقهر الرجال.

اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام ومن سيء الأسقام.

اللهم رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته.

اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر.

اللهم أنت ربي لا إله إلاَّ أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت.

اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون.

اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

اللهم يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك اللهم يا مصرِّف القلوب والأبصار صرِّف قلبي على طاعتك.

اللهم لا تدع لي ذنباً إلاَّ غفرته ولا همًّا إلاَّ فرجته ولا ديناً إلاَّ قضيته ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هي لك رضىً ولنا فيها صلاح إلاَّ قضيتها يا أرحم الراحمين.

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

اللهم اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدلٌ فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي.

اللهم علمني منه ما جهلت وذكرني منه ما نسيت وارزقني تلاوته آناء الليل والنهار على الوجه الذي يرضيك عني برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم.

اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني وارحمني اللهم إني أسألك خير المسألة وخير الدعاء وخير النجاح وخير العمل وخير الثواب وخير الحياة وخير الممات وثبتني وثقل موازيني وحقق إيماني وارفع درجتي وتقبل صلاتي واغفر خطيئتي وأسألك الدرجات العلى من الجنة.

اللهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة.

اللهم إني أسألك خير ما آتي وخير ما أفعل وخير ما أُبطن وخير ما أُظهر والدرجات العلى من الجنة.

اللهم إني أسألك أن ترفع ذكري وتضع وزري وتصلح أمري وتطهر قلبي وتحصن فرجي وتنور قلبي وتغفر لي ذنبي وأسألك الدرجات العلى من الجنة.

اللهم إني أسألك أن تبارك لي في نفسي وفي سمعي وبصري وفي روحي وفي خَلقي وفي خُلقي وفي أهلي وفي محياي وفي مماتي وفي عملي وتقبل حسناتي وأسألك الدرجات العلى من الجنة.

اللهم احفظني بالإسلام قائماً واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقداً، ولا تشمت بي عدواً ولا حاسداً.

اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقىٰ الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد.

اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاَّ أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلاَّ أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم إني أعوذ بك أن أُرَدّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من القسوة والغفلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الكفر والفسوق والشقاق والسمعة والرياء.

اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمتُ ومن شر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل.

اللهم إني أعوذ بك من الهدم والتردي ومن الغرق والحرق والهرم، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك من أن أموت لديغاً وأعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع.

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك مما تعلم وأنت علاَّم الغيوب.

اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي يا حي يا قيوم اللهم زدني ولا تنقصني وأكرمني ولا تهني، وأعطني ولا تحرمني، وآثرني ولا تؤثر عليَّ يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتبيض بها وجهي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وترد بها الفتن عني وتعصمني بها من كل سوء.

اللهم إني أسألك صحة في إيمان، وإيماناً في حسن خلق، ونجاحاً يتبعه فلاح، ورحمة منك وعافية منك، ومغفرة ورضواناً.

اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري وأنا البائس الفقير والمستغيث

المستجير والوجل المشفق المقر المعترف إليك بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته وذل لك جسمه ورغم لك أنفه اللهم تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة صدري يا أرحم الراحمين.

لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللهم عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجلعنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم.

رسالة

إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها

أمة الإسلام :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد . .

من هنا، من البطحاء، من مهبط الرسالة، من ميلاد النور، من مهد الحضارات، أناديكم جميعاً أن نعلن في صدقٍ وإخلاص أن لا نعبد إلاَّ الله ولا نشرك به شيئاً، تعالوا نجدِّد العهد، ونوثِّق الميثاق ونَسْتلهم المُثُل ونحمل المبادىء ونرفع راية التوحيد.

نتآخىٰ فنُلْغي فَوارق الجنس والدم والطين واللون. ونتحابّ فنخلع رداء الفُرقة والشَّتات والتَّشَذْرُم.

ونتعاون فنطَّرح التواكل والتخاذل والنّكوص.

ونتعارف فنهجر النكران والاستعلاء والجفاء.

أمة الإسلام :

يا أمَّة خاطبت الدهر بلسان الوحي على منبر الرسالة.

وأعتقت البشرية من رِقِّ الطاغوت وقَبْضَةِ الجبروت. وشادت صرح العرفان وبنت منائر الوعي وقلعة الفضيلة.
تعالوا إلى التوحيد الخالص فلا جفاء مُزري ولا غلو جارف، ولا جحود مُميت، ولا جمود مقيت.
توحيد خالص فلا طواف بأضرحة ولا انطراح على رباطات. ولا تقديس لأشخاص ولا تفخيم لأجناس.
توحيد بلا شرك ولا شك ولا انحراف ولا تعطيل.
قوا أنفسكم ناراً وأعراضكم عاراً وأمتكم دماراً وتأريخكم خساراً.
أنقذوا أنفسكم من الزيغ، وضمائركم من الالتواء، ومناهجكم من العبث، ومسيرتكم من الانحراف.
هبوا إلى نُزُل الأبرار الميامين ملتمسين القدوة من المعلم والأسوة من المعصوم والنهج من الخاتم والفتح المبين من رب العالمين.

أمة الإسلام :

كفى ضياعاً توجُّه القلوب إلى غير باريها، والأجيال إلى غير معلمها والمناهج إلى غير مُحكمها.

أمة الإسلام :

قبل قرون وقف هنا محمد بن عبدالله ﷺ أشعث أغبر محرماً في رداء وإزار أبيضين بجانبه بلال وسلمان وصهيب وعمار ليقول للعالم: هنا حقوق الإنسان، هناء إلغاء الطبقية وإنهاء العنصرية. ليقول للناس كلّ الناس: إن أكرمكم عند الله أتقاكم لِتَطَامن التِّيجان وتتواضع الأكاليل، ويخبو الزَّهْو، وتوأد الكبرياء إلاَّ لله تعالى.

ليقول للناس بلسان الحال أنا فتحت لكم الدنيا بالدِّين فلا تنسوا الدين بمشاغل الدنيا. أنا فتحت لكم الإيوان الكسروي والقصر القصروي لتكون معابد للساجدين ودوراً للعابدين.

أمة الإسلام :

هنا وقف النبي الأمي المعصوم ليخاطب الكون بشعوبه وضمائره وأجياله وجمعياته ومنظَّماته يدعوهم إلى الله فهل في الله شك فاطر السموات والأرض.

ويدعوهم إلى الإيمان فما لهم لا يؤمنون؟

ويدعوهم إلى الذكر الحكيم فما لهم إذا قُرِىء عليهم القرآن لا يسمعون.

أمة الإسلام :

إن البشرية إن لم تُهْد بهداه في أمر مريج، وإن الأرض إن لم تر شمسه في ليلة ليلاء، وإن القلوب إن لم تشاهد نوره فهي في فتنة عمياء، إن بعثته ﷺ إعلان رباني عالمي لإنهاء عبودية الإنسان للإنسان وظلم الإنسان للإنسان واضطهاد الإنسان للإنسان، بل هي فجرٌ صادق لحضارة طاهرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّها، بل مولدٌ مبارك للقِيم المثلىٰ، وأصلٌ باسقٌ أخرج نباته على الإيمان فآزره بالإصلاح فاستوىٰ على سوق الرضوان، يعجب دعاة الفضيلة ورواد الخير والباحثين عن الحق والمتطلعين إلى حياة العزّة والكرامة والفلاح.

فاستفاقت على صباح جديد   ملـــؤ آذانهـــا أذان بـــلال

إخوة المبدأ والعقيدة :

هذه كلمات صادقة وهمسات خالصة من قلب أحبكم في الله.

هذه رسالة إيمانية من نفسٍ مشُوقة برؤيتكم مؤمِّلةٍ في عزَّتِكم راغبةٍ في سعادتكم وخلاصكم في دنياكم وآخرتكم.

بعثت إلى الأحباب مني رسالةً   من القلب يسري في كليماتها النَّدُّ

وبعد :

أسأل الله تعالى أن يقبل حجكم، ويغفر ذنبكم، ويرفع قدركم

وينصركم على أعدائكم.
أسأل الله تعالى أن يُوحِّد صفوفكم، ويجمع على الخير قلوبكم، ويعلي بكم كلمته وينصر بكم شريعته إنه سميع مجيب.

من مهبط الوحي من أرض النبوة من أزكى وأنقى بقاع الأرض أهديها
رسالة لِرفاق الدرب قاطبةً والصدق والودُّ يسري في معانيها
ما جئتكم أحمل النجوى بلا هدفٍ لكن أتيت لأعطي القوس باريها

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المرسل:
أخوكم : ناصر بن مسفر الزهراني
العنوان : مهبط الوحي ومنبع الرسالة

على مقربة من البيت الحرام، وزمزم والمقام وبعد خطوات من غار ثور، على طريق البطحاء ومقابل غار حراء، وليس ببعيدٍ من المحصب ومسجد الخيف

من أخبار مكة والمسجد الحرام

أماكن تاريخية

هذه تعريفات موجزة لبعض الأمكنة المتعلقة بمكة المكرمة ولاسيما الذي ورد له ذكر في السيرة النبوية في الحج وغيره، أو له شهرة ذائعة[١].

(١) **أبو قُبَيْس**: هو جبلٌ شامخٌ من أشهر جبال مكة، وهو يشرف على المسجد الحرام من مطلع الشمس، ويقع بين شعب علي وبين أجياد.

(٢) **البطحاء**: اسم مألوف لدى العرب لكلِّ أرض في مسيل السيل، وقد تغيرت البطحاء هنا وأصبحت شارعاً معبّداً مرصوفاً، وكان أهل مكة يعرفون أن البطحاء بين مهبط ريع الحجون والمسجد الحرام. فإذا تجاوزنا ريع الحجون مشرقاً فهو الأبطح...

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

وقال آخر:

قف ببطحائها قُبالة بيت الله   واخشع فإنها البطحاءُ

---

(١) راجع كتاب الأستاذ عاتق البلادي: «معالم مكة التأريخية والأثرية» وتعليقات معالي الشيخ عبدالملك بن دهيش على كتاب أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه للإمام الفاكهي بتحقيق الشيخ ابن دهيش.

بـارك الله حـولهـا واجتبـاهـا فَـزَكـتْ فـي صعيـدهـا الأنبيـاءُ

(٣) **ثَبِير**: معظم جبال مكة الكبار كانت تسمى الأثبرة جمع ثبير، فمنها: ثبير غَيْنَاء وهوأكبر هذه الأثبرة وأعظمها شموخاً وهو الذي يسميه أهل مكة جبل الرَّخم وهو المقابل لجبل حراء من الجنوب والمشرف على منى من الشمال.

ومنها: ثبير النِّصْع وهو جبل شامخ بمزدلفة على يسار الذاهب إلى منى وهو الذي كان الجاهليون لا يفيضون من مزدلفة حتى تشرق الشمس على رأسه وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نُغير. فالمقصود بذلك هو هذا الجبل وليس ثبير غيْناء.

(٤) **الجحفة**: وهي أحد مواقيت الإحرام وتقع في طريق الساحل الشمالي من الحجاز، والجحفة مندثرة اليوم ويحرم الحاج في الوقت الحاضر من رابغ. وتبعد عن مكة بـ(٢٠٤) كم، وهي ميقات أهل مصر والشام والمغرب.

(٥) **الجِعْرانة**: ماءٌ بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب. نزلها النبيُّ ﷺ لمّا قسَّم غنائم هوازن عند مرجعه من غزوة حنين، وأحرم منها ﷺ بِعُمْرة.

(٦) **جَمْع**: هي مُزْدَلِفَة وسُمِّيت بذلك لاجتماع الحجاج فيها عند الإفاضة من عرفات ويوجد بها المشعر الحرام.

وَليلة جَمْع والمنازل من منى وهل فوقها من حرمةٍ ومنازل

وقال آخر:

سلا القلبُ إلاَّ من تذكُّر ليلةٍ بجَمْعٍ وأخرى أسعفت بالمحصَّب

(٧) **الحجون**: وهي التي يسمِّيها عامة الناس اليوم بالحُجُول.

قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يَسْمر بمكة سامر

ومن باب الاستطراد المفيد يروى في مناسبة القصيدة التي منها البيت المتقدم: أن قبائل جُرْهُم كانوا سادة البيت فَبَغَوْا فيه وفسقوا وطغوا فثارت الحرب بينهم وبين خزاعة، فأجْلَتْهُم خزاعة إلى اليمن فَضَلَّتْ إبلٌ لِمضاض بن عمرو الجرهمي ملك جرهم، فأخذ يبحث عنها ويتابع أثرها حتى أشرف على وادي مكة، فإذا به يرى إبلَهُ تُنحَر وُتطبخ فقال قصيدة طويلة يتحسَّر فيها على مكة وفراقها ومنها الأبيات التالية:

كأنْ لم يكنْ بين الحجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سامرُ

ولم يتَربَّع واسطاً فجنو به إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضر

بلىٰ نحن كُنّا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدودُ العواثرُ

وبَدَّلنا ربِّي بها دار غربةٍ بها الذيبُ يعوي والعدو المحاصرُ

وبعد أن تمكنت خزاعة من إجلاء جرهم أصبحت لها سيادة البيت خمسمائة عام إلى أن أفسدت وطغت فأزاحها قصي بن كلاب فوليتها قريش وعمرت البيت وسادته.

فلما أفسدت قريش في الحرم بما وضعت فيه من أصنام وبما

غيَّرت ما تبقى من ملَّة إبراهيم عليه السلام أرسل الله محمداً ﷺ بدين الحق ليظهره على الدين كله ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ وجبل الحجون هو ذلك الجبل الذي تقع مقبرة أهل مكة القديمة بسفحه من الجنوب الغربي وفي هذه المقبرة قبر خديجة رضي الله عنها.

(٨) **الحُدَيبية**: موضع مشهور في طريق جدة القديم يعرف اليوم بـ«الشميسي» لأن رجلاً كان يحمل هذا الاسم حفر هناك بئراً قيل لها بئر الشمسي فسميت المنطقة بذلك الاسم، وتبعد الحديبية عن المسجد الحرام حوالي (٢٥) كيلومتر. والحديبية هي المكان الذي جرى فيه صلح الحديبية المشهور الذي وقع بين النبي ﷺ وكفار قريش حينما صدوا المسلمين عن العمرة في ذي القعدة عام ستٍ من الهجرة.

(٩) **حُنَيْن**: وادٍ من أودية مكة المكرمة يسيل من السراة ويعرف اليوم بوادي الشرائع العليا، وفيها أكثر من عين ماءٍ جارية، وحنين هو المكان الذي جرت فيه الوقعة الشهيرة بين رسول الله ﷺ وبين هوازن ومن ناصرهم عام الفتح، فهزمهم رسول الله ﷺ. ويبعد ماء حنين ستة وثلاثين كيلومتر من المسجد الحرام إلى الشرق . وهو على يمين الذاهب إلى الطائف من طريق السيل.

ولما دنونا من حُنَيْن ومائه ... رأينا سواداً منكر اللون أحصفا

ولو أن قومي طاوعتني سراتهم ... إذا ما لقينا العارض المتكشِّفا

إذا ما لقينا جند آل محمدٍ ثمانين ألفاً واستمدُّوا بخندفا

(١٠) **الخَيْفُ**: في الحجاز أكثر من عشرة مواضع بهذا الاسم، منها ثلاثة حول مكة، ولكن الوارد ذكره في الشعر العربي هو خيف منى الذي ينسب إليه مسجد الخيف، وهو في سفح جبل منى الجنوبي.

سقى منىً وليالي الخيف ما شَرِبَتْ من الغمام وحيَّاها وحيّاك
إذ يلتقي كلُّ ذي دَيْنٍ وماطله مِنَّا ويجتمع المشكوُّ والشاكي

* * *

أيها الراكب المجدّ ابتكاراً قد قضى منم تهامة الأوطارا
إن يكن قلبك الغداة خليّا ففؤادي بالخيف أمسى معارا

(١١) **ذاتُ عِرْق**: هي من مواقيت الإحرام، وهي ميقات أهل العراق ومن جاء عن طريقهم، وتبعد عن مكة حوالي مائة كيلومتر وتسمى اليوم بـ«الضَّريبه» وهي مهجورة.

(١٢) **ذو الحُلَيفَة**: وهو من مواقيت الإحرام، وهو ميقات أهل المدينة ومن جاء عن طريقهم، وهو في طريق المدينة وهو إلى المدينة أقرب ويسمى اليوم «أبيار علي».

(١٣) **ذو طُوى**: وهو وادٍ من أودية مكة، كلُّه اليوم معمور، وعليه من الأحياء: العتيبية، وجرول، والطنضباوي، وحارة البرنو، ومعظم شارع المنصور، والحفائر. وانحصر الاسم اليوم في بئر في جرول تُسمّى بئر طوى، وهي موضع مَبيته ﷺ حين فتْح مكة.

إذا جئت أعلى ذي طوى قف ونادها   عليك سلام الله يا ربة الخدر
هل العين ريّا منك أما أنا راجعٌ   بهمٍّ مقيم لا يريم عن الصدر

(١٤) **عارم:** هو السجن الذي كان عبدالله بن الزبير رضي الله عنه يسجن فيه خصومه ويقال أن عارماً هذا هو عبدٌ لعبدالرحمن بن عوف غضب عليه فبنى له سقيفة فسجنه فيها، فسميت بعد ذلك بسجن عارم.

ومن سجنهم عبدالله بن الزبير في سجن عارم: محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفيّة ـ والحنفية هي أمُّه نسب إليها ـ فثارت مشاعر أحد الشعراء لهذا الموقف وأنكر على ابن الزبير سجنه لابن الحنفية، والشاعر هو محمد بن كثير فأنشد قصيدة منها:

تخبِّر من لاقيت أنك عائذٌ   بَلِ العائذُالمسجونُ في سجن عارمِ
ومن يلق هذاالشيخ بالخيف من منى   من الناس يَعلمْ أنه غيرُ ظالمِ
سَمِيُّ النبيِّ المصطفى وابن عمِّه   وفَكَّاكُ أغلالٍ وقاضي مَغَارمِ
فما رونق الدنيا بباقٍ لأهله   ولا شدّة البلوى بضربةِ لازم

(١٥) **عرفات:** هي المشعر المعروف من مشاعر الحج، وهي فسيح من الأرض محاط بقوس من الجبال يكون وتْره وادي عُرنة وقيل سُمِّيت عرفات لأن آدم وحواء تعارفا فيها.

إلى عرفات الله يا خير زائرٍ   عليك سلام الله في عرفات

(١٦) **قرن المنازل:** وهو من مواقيت الإحرام، وهو ميقات لأهل

نجد ومن جاء عن طريقهم ويعرف اليوم بـ«السيل الكبير» ويبعد عن مكة ثمانين كيلومتراً، وعن الطائف ثلاثة وخمسين كيلومتراً.

(١٧) **كَدَاء**: ثنيةٌ من ثنايا مكة، أصبحت تعرف اليوم بـ«ريع الحُجُون». قال الشاعر:

أقْفَرتْ بعد عبدشمسٍ كَدَاءُ   فَكُدَيٌّ فالركنُ فالبطحاءُ
فمنىً فالجمارُ من عبدشمسٍ   مقفراتٌ فَبَلْدحٌ فَحِراءُ

وقال حسان بن ثابت:

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النّقع موعدُها كَدَاء

والأكدية بمكة ثلاثة:

- كَدَاء: وهو الذي سبق الكلام عنه.
- كُدىً: بالقصر، وهو يعرف اليوم بـ«رِيع الرّسَّام».
- كُدَيّ: وهو لا يزال معروفاً بنفس الاسم إلى اليوم، يصل بين مسفلة مكة وجبل ثور جنوب المسجد الحرام.

من لقلبٍ حلّ جرعاء الحمى   ضاع مني هوله ردٌّ علي
فاسْأَلوا سكان وادي سلم   فَهْوَ ما بين كَدَاء وكُدَي

(١٨) **محسِّر**: وهو وادٍ صغيرٌ يأتي من الجهة الشرقية لِثبير الأعظم.

أقول لأصحابي بسفع محسِّرٍ   ألم يأن منكم للرحيل هبوبُ
فيتبعكم بادي الصَّبابةِ عاشقٌ   له بعد نوم العاشقين نحيبُ

وفي صفة حج النبي ﷺ: فلما أتى بطن محسِّر حرّك ناقته

وأسرع السير، وقيل إن السبب في إسراعه ﷺ في وادي محسر أن أصحاب الفيل أصابهم العذاب هنالك، وسُمِّي محسِّراً؛ لأن الفيل أعييٰ عن السير فيه وكلَّ، وكان من عادته ﷺ الإسراع في الأمكنة التي نزل فيها عذاب من الله تعالى. ووادي محسِّر يقع بين مزدلفة ومنى، والإسراع في المحسِّر مستحبٌ عند الأئمة الأربعة سواءً كان ماشياً أو راكباً، وقيل سمي بذلك لأن إبليس وقف فيه متحسِّراً.

(١٩) **المُحَصَّب:** قال ابن عباس - رضي الله عنه -: ليس المحصب بشيء، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ.

ويقصد ابن عباس أن النزول بالمحصب بعد الفراغ من الحج ليس أمراً مطلوباً، والرسول ﷺ إنما نزل به لأنه أقرب شيء لطريقه ووجهته.

وقد اختلف في تحديد المحصَّب اختلافاً كثيراً. قال الأزرقي: وحدُّ المحصَّب من الحجون مصعداً في الشقّ الأيسر وأنت ذاهب إلى منى إلى حايط خرمان مرتفعاً عن بطن الوادي، فذلك كله المحصَّب. وقيل هو المكان الذي تنتظم فيه الجمرات الثلاث، وقيل هو موضع رمي الجمار، وذلك أن حصى الجمار يُسمى الحصباء. وقيل المحصب ما بين منى إلى المنحنى، والمنحنى هو: حد المحصب من الأبطح منذ أن تخرج من منى فأنت في المحصب حتى يضيق الوادي فذاك المنحنى.

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ حين أراد قدوم مكة: منزلنا غداً إن شاء الله تعالى بِخَيْفِ بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر يعني بذلك المحصّب، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطَّلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يُسْلِمُوا إليهم النبي ﷺ.

نظرتُ إليها بالمحصّب من منىً ... ولي نظرٌ لولا التحرّم عارمُ
بعيدةُ مهوى القرط إما لنوفلٍ ... أبوها وإما عبد شمسٍ وهاشمُ

(٢٠) **مرُّ الظهران:** وادٍ مشهور من أودية الحجاز غزير المياه كثير الزراعة، وتطلق عليه اليوم عدّة تسميات بحسب مواضعه، وأشهرُ أسمائه «وادي فاطمة».

(٢١) **المغمَّس:** هو السهل الفسيح الواسع الذي يبدأ من أرض الصفاح والشرائع العليا (حنين) إلى سهل عرفات بل إن سهل عرفات كله ما هو إلا امتداد لأرض المغمس ويقع في وسط أرض المغمس ووادي عُرنة.

ألم تسأل الأطلال والمتربَّعا ... ببطن حليّات دوارس بلقعا
إلى الشري من وادي المغمَّس بُدِّلت ... معالمه وبْلاً ونكباء زعزعا

(٢٢) **منى:** وهي المكان الذي يقضي فيه الحجاج أكثر إقامتهم. ولها منزلة عريقةٌ ورتبةٌ رفيعة عند أهل الحجاز، وقد ترنم بذكرها الشعراء وكثر ترددها في قصائدهم.

أحبك ما أقام منىً وجمع ... وما أرسى بمكة أخشباها
وما دفع الحجيج إلى المصلى ... يجرُّون المطيَّ على وجاها

ومانحروا بخيف منىً وكبُّوا على الأذقان مشعرة ذراها

وقال آخر:

ولما قضينا من منى كلَّ حاجة ومسَّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

وقال آخر:

تفرّق آلافُ الحجيج على منىً وشَتَّتهم شعث النوىٰ صبْح أربع
فريقان، منهم سالكٌ بطن نَخْلةٍ وآخر منهم سالكٌ بطن تَضْرُعِ
فلم أرَ داراً مثلها دارَ غبطةٍ ولهوٍ إذا التفّ الَحجيجُ بمَجْمَعِ
أقلَّ مقيماً راضياً بمكانه وآخرَ منهم طاعنٌ لم يودّع
وأصبحتَ لا تلقى خباءً عهدتَه به غدوةً أوتادُه لَمْ تُنزَّعِ
فشاقُوك لما وجَّهوا كل وجهةٍ فبانُوا وخلّوا عن منازِل بَلْقَعِ

(٢٣) **نعْمَان**: كان يعرف بنعمان الأراك، وهو وادٍ من أكبر أودية مكة المكرمة وأبعدها شهرة وأعظمها مكانة.

وادي نعمان تأتي أعلى نواشؤه من طود الحجاز حيث جبال: كرا - وعَفَار وغيرها - وله روافد كبار أثناء مسيرته ومنها: عَرْعر وصار ورهجان وكلها عن يساره، وبُرْم، والوصيق عن يمينه، وتصب فيه مياه جبال شوامخ، ثم ينحدر وادي نعمان بشكل شبه مستقيم فيمرُّ جنوب عرفة، فإذا تجاوزها اجتمع بوادي عُرَنة ثم يفقد نعمان اسمه ويصبح الاسم لِعُرنة.

ومن أهم العيون في نعمان: عينُ زبيدة، ثم حُفرت فيه آبار

عديدة فيما بعد، وقد أكثر الشعراء العرب من ذكر نعمان والتغني به، وهناك جبال أُخر بهذا الاسم في بلاد العرب، ولكن أشهرها وأوفرها حظًّا في الشعر هو نعمان مكة.

يقول البهاء زهير:

فَدَعْ كلَّ ماء حين يُذكر زمزمٌ ودعْ كلَّ وادٍ حين يذكر نعمانُ

وقال آخر:

ألا أيها الرّكب اليمانون عرِّجوا علينا فقد أضحى هوانا يمانيا

نسائِلكم هل سال نعمانُ بعدنا وحبّ إلينا بطن نعمان واديا

عَهِدنا به صيداً كثيراً ومَشْرباً به نَنْقع القلب الذي كان صاديا

وقال آخر:

فاصبرعلى الهجرماغنَّت مطّوقةٌ أليفةٌ لحمامات بنعْمانِ

وقال آخر:

تضوَّع مسكاًبطن نعمان إذمشت به زينبٌ في نسْوةٍ عطرات

تهادين مابين المحصّب من منى وأقبلن لا شعثاً ولا غبرات

يُخبئن أطراف البنان من التّقى ويقتلن بالألحاظ مقتدراتِ

(٢٤) **يلملم**: وهو من مواقيت الحج، وهو ميقات أهل اليمن ومن جاء عن طريقهم ويبعد عن مكة لجهة الجنوب بـ(٩٤) كم. ويسمى هذا المكان اليوم «السعدية».

من أطوار عمارة البيت الحرام

منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد هذا البيت العظيم وأفئدةُ الناس تهفو إليه وتحبه وتحرص على خدمته وصيانته ورعاية حرمته، وبعد مبعث نبينا ﷺ، وتطهيره لهذا البيت من أدران الشرك، ورواسب الوثنية منذ تلك الإشراقة المباركة، والطلعة الميمونة إلى يومنا هذا، وخلفاء الإسلام وأمراؤه يُعنون بهذا البيت العظيم أيّما عناية ويرعونه أكمل رعاية. فجزى الله من خدمه وصانه وعُني به خير الجزاء وأكمل الثواب.

وإليك نبذة مختصرة عن بعض أطوار الإعمار، والمراحل التي مرت بها الكعبة المشرفة والمسجد الحرام عموماً[١].

(١) العصر الجاهلي:

وكان ذلك بوجود النبي ﷺ وقبل مبعثه، حيث أصاب الكعبة حريق صدّع بنيانها وأوهن حجارتها، فارتاعت قريش لذلك الأمر واهتموا له، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على إحداث شيء في البيت

---

(١) هذه العجالة عن أطوار عمارة البيت الحرام مختصرة من محاضرة للشيخ صالح بن حميد بعنوان: «المسجد الحرام تاريخ وأسرار». ومن كتاب خاص عن توسعة الحرمين الشريفين صدر عن مؤسسة عكاظ للصحافة. ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع كتاب «أخبار مكة» للأزرقي. وكتاب «أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه» للإمام الفاكهي. وكتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام».

إجلالاً له وخوفاً من نقمةٍ أو قارعة تنزل بهم.

فتجرأ الوليد بن المغيرة على ذلك الأمر، وتقدّم إلى الكعبة فاقتلع أول حجر منها وهو يقول: اللهم لا تُرعْ لا نريد إلاَّ الخير. فتبعه الناس بعد ذلك وشاركوا في بنيان الكعبة، وقد شارك الرسول ﷺ في بنائها في ذلك الوقت. فأتموا بناءها على ارتفاع ثمانية عشر ذراعاً ووسعوا الحِجْر ورفعوا بابها ليدخلو من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، وسقفوها وكانت في عهد إبراهيم غير مسقوفة وجعلوا لها ميزاباً لتصريف الأمطار.

(٢) في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ :

دَهَمَ الكعبةَ سيلٌ جارفٌ عُرف بسيل أم نَهْشل ـ وهي امرأةٌ جرفها ذلك السيل ـ واقتلع السيل مقام إبراهيم وجرفه إلى أسفل مكة، فلما أن وصل الخبر إلى أمير المؤمنين وهو بالمدينة، قدِمَ بنفسه ليقف على هذا الحدث، وكان ذلك عام سبعة عشر للهجرة، فردّ عمر المقام إلى مكانه ثم بدا له إصلاح المسجد وتوسيعه فاشترى بعض الدور الملاصقة له ثم سوّر المسجد بحائط يبلغ ارتفاعه دون القامة وجعل له أبواباً في محاذاة المسارات واتخذ للمسجد مصابيح وجعلها فوق حائطه.

(٣) في عهد عثمان :

اشترى دوراً بجوار المسجد، ثم قام بتوسعته واتخذ له رواقاً مسقوفاً وهو أوّل رواقٍ أظل المسلمين.

(٤) في عهد ابن الزبير :

في الفتنة التي قامت بين ابن الزبير وبني أمية رُميت الكعبةُ بالمنجنيق واحترقت وتصدّعت حيطانها، فأمر ابن الزبير بهدمها ثم بناها على قواعد إبراهيم[١].

فلما ولي الحَجّاج بن يوسف الثقفي مكة من قِبَل عبدالملك بن مروان استأذنه الحجاج في هدمها وإعادتها على ماكانت عليه ففعل

(٥) في عهد عبدالملك بن مروان :

لقيَ البيت من عبدالملك بن مروان عناية طيبة، فقد اهتم ببنائه وتجديد سقوفه وأضاء ما بين الصفا والمروة، واتخذ مصباحاً كبيراً مقابل الركن الأسود، واستمرت منه تلك العناية والرعاية والتجديدات، وفي العهد الأموي بدأت ظاهرة العبيد الذي يُوقفون لخدمة البيت.

(٦) في عهد أبي جعفر المنصور :

قام الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور بتوسعة للمسجد من الجهتين الشمالية والغربية وأحدث رواقاً دائرياً في صحن المسجد، وبنى على فُوَّهة زمزم شبَّاكاًيمنع السقوط فيه وفرش الأرض بالرّخام

---

(١) أراد ابن الزبير أن يحقق رغبة النبي ﷺ حينما قال لعائشة: «**لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أُخرِج منه وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين؛ باباً شرقياً، وباباً غربياً، فَبَلَغْتُ به أساس إبراهيم**» رواه البخاري.

(٧) في عهد المهدي :

حينما حج المهدي عام ستين ومائة وسّع المسجد من جميع الجهات واتخذ له أروقة جديدة، واستغرق ذلك أربع سنوات، وكانت توسعة كبيرة، وبها أصبح المسجد متصلاً بالمسعى، لا يفصل بينهما بيوت، وبلغت مساحة المسجد في عهد المهدي مائة وعشرين ألف ذراع، أي حوالي ثمانية وعشرين ألف متر مربع. وبلغت الأبواب ثلاثة وعشرين باباً، والبناء القديم الموجود حالياً هو من عهد المهدي من حيث المساحة سوى زيادتين يسيرتين، وهي إلحاق دار الندوة في عهد المعتضد، وزيادة مما يلي باب إبراهيم بأمر الخليفة المقتدر سنة ٣٠٦هـ.

(٨) في عهد الرشيد :

كان الخليفة هارون الرشيد رحمه الله ممن أوْلىٰ البيت الحرام عناية واهتماماً، وقد أنشأ مظلة للمبلِّغين فوق سطح المسجد.

(٩) في عهد الواثق :

في عهد الواثق اتخذت للمسجد الحرام أعمدة من نحاس، وجعل على كل عمود ثُرَيَّتَيْنِ لإضاءة المطاف.

وهكذا استمر الخلفاء والولاة يعنون بالمسجد الحرام والكعبة المشرفة وبئر زمزم.

(١٠) في عهد السلطان سليم :

في عهد السلطان سليم العثماني تمَّ تجديد بناء المسجد الحرام

على مساحة المهدي، وكان ذلك في عام ٩٧٩هـ، وتمّ الفراغ من تجديده عام ٩٨٩هـ في عهد السلطان مراد خان.

وهكذا حدثت بعض التجديدات والإصلاحات في العهد العثماني وبعده، ففي عام ١٠١٩هـ تشقّقَّ الجدار الشمالي للكعبة بسبب الأمطار الغزيرة، فاقترحوا شدّها بحزام من نحاس ففعلوا ذلك وغُلِّف الحزام بالذهب، وفي عام ١٠٣٩هـ جاء مطرٌ عظيم، انهار به جدار الكعبة الشمالي والشرقي وثلث الغربي، فشرعوا في بنائها من حجارة في جبل في الشبيكة سُمِّي فيما بعد جبل الكعبة، واستمر البناء إلى عام ١٠٤٠هـ.

وطيلة هذه المدة وساحة المسجد ثابتةٌ عند توسعة المهدي، أي منذ عام ١٦٠هـ فبقي حال المسجد من حيث التوسعة على ما هو عليه عدا الزيادتين اليسيرتين اللتين أشرنا إليهما.

(١١) في العهد السعودي :

ثم جاءت الدولة السعودية فأولت المسجد الحرام والمسجد النبوي عناية فائقة، ففي عهد الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أعلن رغبته في توسعة الحرمين الشريفين عام ١٣٦٨هـ.

وتمت التوسعة الأولى التي رعاها هو وابناه سعود وفيصل ـ رحمهما الله ـ وكانت توسعةً كبيرةً مباركة.

ثم جاء عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ـ وفقه الله ـ فأولى المسجد الحرام والمسجد النبوي عناية فائقة لم

يسبق لها نظير، وقد أصدر أمراً بتوسعة إضافية ويتضمن مشروع توسعة المسجد الحرام إضافة جزءٍ جديدٍ على مبنى المسجد الحالي من الناحية الغربية في منطقة السوق الصغير بين باب العمرة وباب الملك. ولهذا الشق من المشروع عناصره المتمثلة في توسعة الحرم المكي ومبنى التوسعة والمداخل والمآذن.

لقد كانت مساحة المسجد الحرام قبل التوسعة السعودية الأولى ٢٨,٠٠٠ (ثمانية وعشرين ألف متر) وبلغت بعد التوسعة السعودية الأولى ١٥١,٠٠٠ (مائة وواحداً وخمسين ألف متر مربع) وتبلغ في توسعة خادم الحرمين الشريفين ٢٠٨,٠٠٠ (مائتي ألف وثمانية آلاف متر مربع) وبإضافة مساحة السطح المستخدم للصلاة والبالغة ٦١,٠٠٠ (واحد وستون ألف متر مربع) ومساحة الساحة المحيطة بالمسجد والتي تبلغ ٨٨,٠٠٠ (ثمانية وثمانون ألف متر مربع) يصبح مجموع المساحات الإجمالية للحرم المكي بعد التوسعة الثالثة ٣٥٧,٠٠٠ (ثلاثمائة وسبعة وخمسون ألف متر مربع) وبذلك يصبح المسجد الحرام يتسع لأكثر من مليون مصلي في آنٍ واحد.

وبلغ عدد المآذن تسع مآذن بارتفاع تسعة وثمانين متراً.

هذا بالإضافة إلى ما تراه الأعين مما لا يخفى على أحد من نظافة وعناية وإضاءة وصوتيات وتكييف وخدمات ومرافق على أحدث نظام وأبدع نَسَقْ.

أثابه الله وجزاه خيراً على ما قدّم لخدمة هذا البيت المبارك.

كسوة الكعبة

يُروى أن أول من كسا الكعبة هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ وفي الجاهلية كانت الكعبة تُكسىٰ في يوم عاشوراء، ثم صارت تُكسىٰ في يوم النحر، وصاروا يعمدون إليها في ذي القعدة فيعلقون كسوتها إلى نحو نصفها، ثم صاروا يقطعونها فيصير البيت كهيئة المُحرم، فإذا حلَّ الناس يوم النحر كسوها الكسوة الجديدة.

وأول من كسا الكعبة الديباج الأبيض الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد، وكساها محمد بن سبكتكين ديباجاً أصفراً، وكساها الناصر العباسي ديباجاً أخضراً، ثم كساها ديباجاً أسوداً، واستمر ذلك اللون إلى العصر الحاضر.

وكانت كسوة الكعبة منذ فجر الإسلام تصنع في إحدى مدن مصر.

كسوة الكعبة في العصر الحاضر :

وتصنع كسوة الكعبة المشرفة من الحرير الطبيعي الخالص المصبوغ باللون الأسود المنقوش عليه بطريقة الجاكارد العديد من الآيات القرآنية.. ويبلغ ارتفاع الثوب أربعة عشر متراً ويوجد في

الثلث الأعلى من هذا الارتفاع حزام الكسوة بعرض ٩٥ سنتيمتراً مكتوب عليه بعض الآيات القرآنية ومحاط بإطارين من الزخارف الإسلامية ومطرز بتطريز بارز مغطى بسلك فضي مطلي بالذهب ويبلغ طول الحزام (٤٧) متراً ويتكون من (١٦) قطعة.. كما تشتمل الكسوة على ستارة باب الكعبة المصنوعة من الحرير الطبيعي الخالص ويبلغ ارتفاعها سبعة أمتار ونصفاً وبعرض أربعة أمتار مكتوب عليها آيات قرآنية وزخارف إسلامية مطرزاً تطريزاً بارزاً مغطى بأسلاك الفضة المطلية بالذهب وتبطن الكسوة بقماش خام.

والتكلفة الإجمالية لثوب الكعبة تبلغ سبعة عشر مليون ريال سعودي ويبلغ عدد العاملين في إنتاج الكسوة مائتين وأربعين عاملاً وموظفاً وفنياً وإدارياً. وقد بدأ العمل في إنتاج الكسوة بمكة المكرمة عام ١٣٤٦هـ. . واستمر إلى عام ١٣٥٧هـ. ثم أعيد افتتاح المصنع عام ١٣٨٢هـ، وأخذ في التطور حتى أصبح عددهم مائتين وأربعين عاملاً، ويتكون المصنع من ستة أقسام: هي الحزام والنسيج اليدوي والصباغة والنسيج الآلي والطباعة والستارة الداخلية. . ويستهلك الثوب الواحد (٦٧٠) كيلوجراماً من الحرير الطبيعي ويبلغ مسطح الثوب (٦٥٨) متراً مربعاً ويتكون من (٤٧) طاقة قماش طول الواحد (١٤) متراً بعرض (٩٥) سنتيمتراً. . بالإضافة إلى (٦) قطع آيات تحت الحزام، وقطعة الإهداء و(١١)

قنديلاً موضوعة بين أضلاع الكعبة، ويبلغ طول ستارة باب الكعبة (٧,٥) متراً بعرض (٤) أمتار مشغولة بالآيات القرآنية من السلك الذهبي والفضي، كما توجد كمية من الذهب والفضة مع المنسوجات تقدر بحوالي ١٢٠كجم.

الخاتمة

وبعد فهذا ما وسعه الجهد، وانتهى إليه الفكر، وجاد به القلم، أضعه بين يديك أخي القارىء وكلي أمل أن يسر ناظرك، ويرضي خاطرك، كلي أمل أن يبهج القلوب، ويطرب النفوس، وأن يفرح به الحاضر، ويأنس به المسافر.

لقد جمعت فيه خلاصة الأحكام ونفائس الأخبار، ومواعظ الأخيار، ودرر الآثار، وغرر الأشعار، نَقَّبْتُ في كتب الأحكام، ونظرت في سير الأعلام، وغربلت كتب الأدباء، وأبحرت مع الشعراء، وأتيت بزبدة التفسير، وآداب المسير، وغير ذلك كثير، فعسى أن يكون قد وقع أجري على العزيز القدير.

أما أنت أخي القارىء فلا تبخل عليَّ بالدعوة الصالحة، والكلمة الناصحة، وأدعو الله أن يغفر لي ولك ولجميع المسلمين.

وآخر دعواناأن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ناصر بن مسفر الزهراني
مكة المكرمة
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

فهرس الموضوعات

الصف التصويري والإخراج **الفرقان**
مكة المكرمة: ٩٨ شارع العزيزية العام مقابل مكتبة ابن زيدون ت: ٥٥٦٤٨٦٠
الرياض: ت ٤٠٤٣٧٣٢ فاكس ٤٠٤٣٧٨٧